/ سورة الكهف [٣٩٦ظ]

مكّيّة،[١] قال ابن عبّاس: غيرَ آيتين،[٢] وهي[٣] مائة وعشر آيات.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ محمّد صلّى الله عليه وسلّم ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: الكتابَ الكامل الغنيّ عن الوصف بالكمال المعروف بذلك مِن بين الكتب الحقيقَ باختصاص اسم الكتاب به، وهو عبارة عن جميع القرآن أو عن جميع المُنزَل حينئذ، كما مرّ مرارًا.

وفي وصفه تعالى بالموصول إشعارٌ بعلّيّة ما في حيّز الصلة لاستحقاق الحمد، وإيذانٌ بعِظَم شأن التنزيل الجليل، كيف لا، وعليه يدور فَلَك سعادة الدارين. وفي التعبير عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم بالعبد مضافًا إلى ضمير الجلالة تنبيهٌ على بلوغه عليه الصلاة والسلام إلى أعلى معارج العبادة، وتشريفٌ له أيُّ تشريف، وإشعارٌ بأنّ شأن الرسول أن يكون عبدًا للمرسِل، لا كما زعمت النصارى في حقّ عيسى عليه السلام.

وتأخير المفعول الصريح عن الجارّ والمجرور مع أنّ حقّه التقديمُ عليه، ليتّصل به قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ أي: شيئًا مِن العِوَج بنوع اختلال في النظم وتنافٍ في المعنى أو انحراف عن الدعوة إلى الحقّ، وهو في المعاني كالعِوَج في الأعيان، وأمّا قوله تعالى: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه، ١٠٧/٢٠]، مع كون الجبال مِن الأعيان فللدلالة على انتفاء ما لا يُدرَك مِن العِوَج بحاسّة البصر؛ بل إنّما يوقَف عليه بالبصيرة بواسطة استعمال المقاييس الهندسيّة،

---

١ ط س + وهي مئة وإحدى عشرة آية.

٢ انظر: تفسير الرازي، ٤٢١/٢١.

٣ س - قال ابن عبّاس غير آيتين، وهي.

ولمّا كان ذلك ممّا لا يُشعَر به بالمشاعر الظاهرة عُدّ مِن قبيل ما في المعاني. وقيل: الفتحُ في اعوجاج المنتصِب كالعُود والحائط، والكسرُ في اعوجاج غيره عينًا كان أو معنى.

﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۝٤﴾

﴿قَيِّمًا﴾ بالمصالح الدينيّة والدنيويّة للعباد على ما ينبئ عنه ما بعده مِن الإنذار والتبشير، فيكون وصفًا له بالتكميل بعد وصفه بالكمال، أو على ما قبله مِن الكتب السماويّة شاهدًا بصِحّتها ومهيمِنًا عليها أو متناهيًا في الاستقامة، فيكون تأكيدًا لِما دلّ عليه نفيُ العِوَج مع إفادة كونِ ذلك مِن صفاته الذاتيّة اللازمة له حسبما تنبئ عنه الصيغة، لا أنّه نُفي عنه العِوَج مع كونه مِن شأنه.

وانتصابه على تقدير كون الجملة المتقدِّمة معطوفة على الصلة بمضمَر ينبئ عنه نفيُ العِوَج، تقديرُه: جعلَه قيّمًا، وإمّا على تقدير كونها حاليّة، فهو على الحاليّة مِن ﴿الْكِتَابَ﴾؛[1] إذ لا فصلَ حينئذ بين أبعاض المعطوف عليه بالمعطوف. / وقُرئ: "قِيَمًا".[2] [٣٩٧و]

﴿لِيُنذِرَ﴾ متعلِّق بـ﴿أَنزَلَ﴾،[3] والفاعلُ ضمير الجلالة كما في الفعلين المعطوفين عليه. والإطلاق عن ذِكر المفعول الأوّل للإيذان بأنّ ما سِيق له الكلام هو المفعول الثاني، وأنّ الأوّل ظاهر لا حاجةَ إلى ذِكره، أي: أنزَل الكتاب ليُنذِر بما فيه الذين كفروا به. ﴿بَأْسًا﴾ أي: عذابًا ﴿شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي: صادرًا مِن عنده نازلًا مِن قِبَله بمقابلة كفرهم وتكذيبهم، وقُرِئ: "مِنْ لَدْنِهِ"[4] بسكون الدال مع إشمام الضمّة وكَسرِ النون لالتقاء الساكنين وكَسرِ الهاء للإتباع.

---

١ في الآية السابقة.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبان بن تغلب والأعمش. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨١؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٤.

٣ في الآية السابقة.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الرفاعي عن يحيى. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٤.

﴿وَيُبَشِّرَ﴾ بالتشديد، وقرئ بالتخفيف[1] ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: المصدِّقين به ﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الأعمالَ الصالحة التي بُيِّنت في تضاعيفه. وإيثار صيغة الاستقبال في الصلة للإشعار بتجدّد الأعمالِ الصالحة واستمرارها، وإجراءُ الموصول على موصوفه المذكور لِما أنّ مَدار قَبول الأعمالِ هو الإيمان. ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ أي: بأنّ لهم بمقابلة إيمانِهم وأعمالهم المذكورة ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو الجنّة وما فيها مِن المَثوبات الحُسنى.

﴿مَّٰكِثِينَ﴾ حال مِن الضمير المجرور في ﴿لَهُمْ﴾.[2] ﴿فِيهِ﴾ أي: في ذلك الأجر ﴿أَبَدًا﴾ مِن غير انتهاء، أي: خالدين فيه، وهو نصب على الظرفية لـ﴿ماكثين﴾. وتقديم "الإنذار" على "التبشير" لإظهار كمال العناية بزَجْر الكفّار عمّا هم عليه مع مراعاة تقديمِ التخلية على التحلية.

وتكرير الإنذار بقوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ متعلّقًا بفِرقة خاصّة ممّن عمّه الإنذار السابق مِن مستحقّي البأس الشديد للإيذان بكمال فظاعة حالهم لغاية شناعة كفرهم وضلالهم، أي: وينذرَ مِن بين سائر الكفَرة هؤلاء المتفوّهين بمِثل هاتيك العظيمة خاصّة، وهم كفّار العرب الذين يقولون: الملائكة بنات الله تعالى، واليهودُ القائلون: عزيرٌ ابن الله، والنصارى القائلون: المسيحُ ابن الله.

وتركُ إجراءِ الموصول على الموصوف، كما فُعل في قوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء، ٩/١٧] للإيذان بكفاية ما في حيِّز الصلة في الكُفر على أقبح الوجوه، وإيثارُ صيغة الماضي في الصلة للدلالة / على تحقّق صدور تلك [٣٩٧ظ] الكلمة القبيحة عنهم فيما سبَق. وجعلُ المفعول المحذوف فيما سلف عبارةً عن هذه الطائفة يؤدّي إلى خروج سائر أصناف الكفَرة عن الإنذار والوعيد، وتعميمُ الإنذار هناك للمؤمنين أيضًا بحَمْله على معنى مجرّد الإخبار بالخبر الضارّ مِن غير اعتبار حُلول المنذَر به على المنذَر، كما في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [يونس، ٢/١٠] يُفضي إلى خُلوّ النظم الكريم عن الدلالة

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٢٣٩.

٢ في الآية السابقة.

على حلول البأس الشديد على مَن عدا هذه الفِرقة. ويجوز أن يكون الفاعل في الأفعال الثلاثة ضميرَ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾،[1] أو ضميرَ الرسول عليه السلام.

﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾

﴿مَا لَهُم بِهِۦ﴾ أي: باتّخاذه سبحانه وتعالى ولدًا ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ مرفوع على الابتداء أو الفاعليّة لاعتماد الظرف، و﴿مِن﴾ مزيدة لتأكيد النفي، والجملةُ حاليّة أو مستأنَفة لبيان حالهم في مقالهم، أي: ما لهم بذلك شيء مِن عِلم أصلًا، لا لإخلالهم بطريقه مع تحقيق المعلوم أو إمكانِه؛ بل لاستحالته في نفسه ﴿وَلَا لِءَابَآئِهِمْ﴾ الذين قلّدوهم فتاهوا جميعًا في تِيه الجهالة والضلالة. أو ما لهم عِلم بما قالوه أهو صواب أم خطأ؟ بل إنّما قالوه رميًا بقول عن عمًى وجهالة مِن غير فكر ورويّة، كما في قوله تعالى: ﴿وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام، ٦/١٠٠]، أو بحقيقة ما قالوه وبعِظَم رُتبته في الشناعة كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۞ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۞ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ الآيات [مريم، ١٩/٨٨-٩٠]، وهو الأنسَب بقوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ أي: عظُمت مقالتهم هذه في الكفر والافتراء لِما فيها مِن نسبته سبحانه إلى ما لا يكاد يليق بكبرياء جنابه.[2]

والفاعلُ في ﴿كَبُرَتْ﴾ إمّا ضميرُ المقالة المدلول عليها بـ﴿قَالُوا۟﴾،[3] و﴿كَلِمَةً﴾ نصب على التمييز، أو ضمير مُبهَم مفسَّر بما بعده مِن النكرة المنصوبة تمييزًا كـ"بئس رجلًا"، والمخصوصُ بالذمّ محذوف، تقديره: كبُرت هي كلمة خارجة مِن أفواههم. وقرئ: "كَبْرَتْ"[4] بإسكان الباء مع إشمام الضمّ، وقُرِئ: "كَلِمَةٌ"[5] بالرفع.

---

١ الكهف، ١٨/١.

٢ م ط س: بجناب كبريائه [صُحِّح في هامش م].

٣ في الآية السابقة.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٤.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وعيسى بن عمر وابن مُحيصن وابن أبي عبلة وأبو حَيْوَة وحُميد والزّعفراني. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨١؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٤؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٤٩.

﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ صفة لـ"الكلمة" مفيدة لاستعظام اجترائهم على التفوّه بها. وإسنادُ الخروج إليها مع أنّ الخارج هو الهواء المتكيّف بكيفيّة الصوت لملابسته بها. ﴿إِن يَقُولُونَ﴾ ما يقولون في ذلك الشأن ﴿إِلَّا كَذِبًا﴾[1] إلّا قولًا كذِبًا لا يكاد يدخُل تحت إمكان الصدق أصلًا، والضميران لهم ولآبائهم.

مُثِّل حاله عليه السلام في شِدّة الوجد على إعراض القوم وتولّيهم عن الإيمان بالقرآن وكمالِ التحسّر عليهم بحال مَن يُتوقَّع منه إهلاك نفسه إثرَ فوت ما يُحِبّه عند مفارقة أحبّتِه تأسّفًا على مفارقتهم وتلهّفًا على مهاجَرتهم، فقيل على طريقة التمثيل حَمْلًا له عليه السلام على الحذَر والإشفاق مِن ذلك: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ﴾ أي: مُهلِك ﴿نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ غمًّا ووَجْدًا على فراقهم. وقرئ بالإضافة.[2]

﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي: القرآنِ الذي عُبِّر عنه في صدر السورةِ بـ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾.[3] وجواب الشرط محذوف ثقةً بدلالة ما سبَق عليه. وقرئ: بـ"أنْ"[4] المفتوحةِ، أي: لأن لم يؤمنوا، فإعمالُ ﴿بَٰخِعٌ﴾ بحَمْله على حكاية حال ماضية لاستحضار الصورة كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ [الكهف، ١٨/١٨].

﴿أَسَفًا﴾ مفعول له لـ﴿بَٰخِعٌ﴾، أي: لفَرْط الحُزن والغضبِ، أو حالٌ ممّا فيه مِن الضمير، أي: متأسِّفًا عليهم. ويجوز حَمْل النظم الكريم على الاستعارة التبعيّة بجعل التشبيه بين أجزاءِ الطرفين لا بين الهيئتين المنتزَعتين منهما كما في التمثيل. وقد مرّ تحقيقُه في تفسير قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة، ٢/٧].

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ استئناف وتعليل لِما في "لعلّ"[5] مِن معنى الإشفاقِ، أي: إنّا جعلنا ما عليها ممّن عدا مَن وُجِّه إليه التكليف مِن الزخارف حيوانًا كان أو نباتًا أو معدِنًا، كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ[6] لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة، ٢/٢٩].

---

١ س + أي.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٥.

٣ الكهف، ١٨/١.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٥.

٥ في الآية السابقة.

٦ ط س: جعل.

﴿زِينَةً﴾ مفعول ثانٍ للجَعْل إن حُمل على معنى التصيير، أو حال إن حُمل على معنى الإبداع. و"اللام" في ﴿لَهَا﴾ إمّا متعلِّقة بـ﴿زِينَةً﴾، أو بمحذوف هو صفة لها، أي: كائنة لها، أي: ليتمتّع بها الناظرون مِن المكلَّفين وينتفعوا بها نظرًا واستدلالًا، فإنّ الحيّاتِ والعقاربَ مِن حيث تذكيرُهما لعذاب الآخرة مِن قبيل المنافِع؛ بل كلُّ حادث داخلٌ تحت الزينة مِن حيث دلالتُه على وجود الصانع ووَحدتِه، فإنّ الأزواج والأولاد أيضًا مِن زينة الحياة الدنيا؛ بل أعظمُها، ولا يمنع ذلك كونُهم مِن جملة المكلَّفين، فإنّهم مِن جهة انتسابهم إلى أصحابهم داخلون تحت الزينة، ومِن جهة كونهم مكلَّفين داخلون تحت الابتلاء.

[٣٩٨ظ] ﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾ متعلِّق بـ﴿جَعَلْنَا﴾، / أي: جعلنا ما جعلنا لنُعاملَهم معاملةَ مَن يختبرهم ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فنُجازيهم بالثواب والعقاب حسبما تبيَّن المحسِن مِن المسيء، وامتازت طبقات أفراد كلّ مِن الفريقين حسب امتياز مراتب علومهم المترتِّبة على أنظارهم وتفاوتِ درجات أعمالهم المتفرِّعة على ذلك، كما قرّرناه في مطالع سورة هود.[1]

و"أيّ" إمّا استفهاميّة مرفوعة بالابتداء و﴿أَحْسَنُ﴾ خبرُها، والجملةُ في محلّ النصب معلِّقة لفعل البلوى؛[2] لِما فيه مِن معنى العِلم باعتبار عاقبته كـ"السؤال" و"النظر"، ولذلك أُجريَ مُجراه بطريق التمثيل أو الاستعارة التبعيّة، وإمّا موصولة[3] بمعنى "الذي" و﴿أَحْسَنُ﴾ خبرُ مبتدأ مضمَر، والجملةُ صلة لها، وهي في حيِّز النصب بدلًا مِن مفعول ﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾، والتقديرُ: لنبلوَ الذي هو أحسنُ عملًا، فحينئذ يحتمل أن يكون الضمّة في ﴿أَيُّهُمْ﴾ للبناء، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ [مريم، ١٩/٦٩] على أحد الأقوال، لتحقُّق شرط البناء الذي هو الإضافة لفظًا وحذفُ صَدْر الصلة، وأن تكون للإعراب؛ لأنّ ما ذُكر شرط لجواز البناء لا لوجوبه.

---

١ وفي هامش م: عند قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود، ١١/٧]. «منه».

٢ وفي هامش م: أيّ مُصحِّحة لتعقيبه بحرف الاستفهام، كما ذُكر في سورة هود. «منه». | في تفسير الآية السابعة منها.

٣ السياق: "أيّ" إمّا استفهاميّة... وإمّا موصولة...

وحُسن العمل: الزهد فيها وعدم الاغترار بها والقناعةُ باليسير منها وصرفُها على ما ينبغي والتأمّلُ في شأنها وجعلُها ذريعةً إلى معرفة خالقها والتمتّعُ بها حسبما أذِن له الشرع وأداءُ حقوقها والشكرُ لها، لا اتّخاذُها وسيلةً إلى الشهوات والأغراض الفاسدة، كما يفعَله الكفَرة وأصحاب الأهواء.

وإيراد صيغةِ التفضيل مع أنّ الابتلاء شامل للفريقين باعتبار أعمالهم المنقسِمة إلى الحسَن والقبيح أيضًا لا إلى الحسَن والأحسَن فقط، للإشعار بأنّ الغاية الأصليّة للجعل المذكور إنّما هو ظهور كمال إحسانِ المحسِنين، على ما حُقِّق في تفسير قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود، ١١/٧].

﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾

﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ﴾ فيما سيأتي عند تناهي عُمر الدنيا ﴿مَا عَلَيْهَا﴾ مِن المخلوقات قاطبةً بإفنائها بالكلّيّة، وإنّما أُظهِر في مَقام الإضمار لزيادة التقرير، أو لإدراج المكلَّفين فيه.

﴿صَعِيدًا﴾ مفعول ثانٍ للجَعْل، والصعيد: التراب أو وجه الأرض. قال أبو عبيدةَ: هو المستوي مِن الأرض.[1] وقال الزجّاج: «هو الطريق الذي لا نباتَ فيه».[2] ﴿جُرُزًا﴾ ترابًا لا نباتَ فيه / بعد ما كان يَتعجَّب مِن بهجته النُّظار ويتشرَّف بمشاهدته الأبصار، يقال: أرض جرُز: لا نباتَ فيها، وسَنة جرُز: لا مطرَ فيها. قال الفرّاء: جُرِزَت الأرض فهي مجروزة، أي: ذهب نباتها بقَحْط أو جَراد، ويقال: جرَزها الجراد والشاة والإبل إذا أكلتْ ما عليها.[3] [٣٩٩و]

وهذه الجملة لتكميل ما في السابقة مِن التعليل، والمعنى: لا تحزَن بما عاينْتَ مِن القوم مِن تكذيب ما أنزلنا عليك مِن الكتاب، فإنّا قد جعلنا ما على الأرض مِن فنون الأشياء زينة لها لنختبرَ أعمالهم فنُجازيَهم بحسبها، وإنّا لَمُفنون جميع ذلك عن قريب ومُجازون لهم بحسب أعمالهم.

---

١ انظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة، ١/٣٩٣؛ وعنه في اللباب لابن عادل، ١٢/٤٢٩.

٢ معاني القرآن وإعرابه للزّجّاج، ٣/٢٦٩؛ وعنه في اللباب لابن عادل، ١٢/٤٢٩.

٣ انظر: معاني القرآن للفرّاء، ٢/١٣٤؛ وعنه في اللباب لابن عادل، ١٢/٤٢٩.

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾

﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ الخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم والمراد إنكار حُسبان أمّته. و﴿أَمْ﴾ منقطِعة مقدَّرة بـ"بل" التي هي للانتقال مِن حديث إلى حديث لا للإبطال، وبهمزة الاستفهام عند الجمهور، وبـ"بل" وحدَها عند غيرِهم، أي: بل أحسبت ﴿أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟﴾ في بقائهم على الحياة مدّة طويلة مِن الدهر، ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا﴾ مِن بين آياتنا التي مِن جملتها ما ذكرناه مِن جعل ما على الأرض زينة لها للحكمة المشار إليها، ثمّ جعلِ ذلك كلّه صعيدًا جرُزًا كأن لم تغْنَ بالأمس.

﴿عَجَبًا﴾ أي: آيةً ذات عجَب، وَضْعًا له موضعَ المضاف، أو وصفًا لذلك بالمصدر مبالغةً. وهو خبرٌ لـ﴿كَانُوا۟﴾ و﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا﴾ حال منه، والمعنى أنّ قصّتهم وإن كانت خارقة للعادات ليست بعجيبة بالنسبة إلى سائر الآيات التي مِن جملتها ما ذُكر مِن تعاجيب خَلْق الله تعالى؛ بل هي عندها كالنزْر الحقير.

و﴿ٱلْكَهْفِ﴾: الغار الواسع في الجبل. و﴿ٱلرَّقِيمِ﴾: كلبُهم. قال أميّةُ بن أبي الصَّلْت:[1]

ولـيـس بـهـا إلّا الـرقـيـمُ مُـجـاورًا وصِيدَهمُ والقومُ في الكهف هُمَّدُ[2]

وقيل: هو لوح رصاصي أو حجَري رُقمت فيه أسماؤُهم وجُعل على باب الكهف. وقيل: هو الوادي الذي فيه الكهف، فهو مِن رَقْمة الوادي، أي: جانبه. وقيل: الجبل. وقيل: قريتهم. وقيل: مكانُهم بين غَضْبانَ[3] وأيْلةَ[4]

---

١ هو أميّة بن أبي الصلت بن ربيعة بن عبد عوف بن عقدة بن غِيَرة بن قسيّ (ت. ٥هـ/٦٢٦م). أمّه رقيّة بنت عبد شمس بن عبد مناف. شاعر جاهلي حكيم مِن أهل الطائف. قرأ الكتب المتقدّمة مِن كتب الله عزّ وجلّ ورغب عن عبادة الأوثان. وكان يُخبِر أنّ نبيًّا يُبعَث ويؤمِّل أن يكون هو ذلك النبيّ، فلمّا بلغه بعثة النبيّ عليه الصلاة السلام كَفَر حسدًا له، ولمّا سمع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم شعره قال: آمن شعره وكفر قلبه. انظر: **الشعر والشعراء** لابن قتيبة، ١/٤٥٠؛ **والأعلام** للزركلي، ٢/٢٣.

٢ البيت لأميّةَ في **ديوانه**، ص ٣٧٥؛ وهو له في **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٥١٩؛ **وأنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢/٣٢٨.

٣ وفي هامش م: اسم جبل. «منه». | جبل غَضْبان: جبل في أطراف الشام، بينه وبين أيلة مكان أصحاب الكهف، انظر: **معجم البلدان** للحموي، ٤/٢٠٦.

٤ وفي هامش م: هي القرية التي كانت حاضرة البحر. «منه». | أيْلَة: بالفتح، مدينة على ساحل ←

دون فلسطين.[1] وقيل: أصحاب الرقيم آخرون، وكانوا ثلاثةً انطبق عليهم الغار فنجَوا / بذِكر كلّ منهم أحسنَ عمله،[2] على ما فُصِّل في الصحيحين.[3] [٣٩٩ظ]

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾

﴿إِذْ أَوَى﴾ ظرفٌ لـ﴿عَجَبًا﴾ لا لـ﴿حَسِبْتَ﴾، أو مفعول لـ"اذكُرْ" أي: حين التجأ ﴿ٱلْفِتْيَةُ﴾ أي: أصحاب الكهف. أوثرَ الإظهار على الإضمار لتحقيق ما كانوا عليه في أنفسهم مِن حال الفتوّة، فإنّهم كانوا فتية مِن أشراف الروم أرادهم دِقيانوسُ على الشِّرك فهربوا منه بدينهم، ولأنّ صاحبيّة الكهف مِن فروع التجائهم إلى الكهف، فلا يناسب اعتبارها معهم قبل بيانه. ﴿إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ بجبلهم بنجلوس[4] واتّخذوه مأوًى.

﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ﴾ مِن خزائن رحمتك الخاصّة المكنونة عن عيون أهل العادات، فـ﴿مِن﴾ ابتدائيّة متعلِّقة بـ﴿ءَاتِنَا﴾، أو بمحذوف وقَع حالًا مِن مفعوله الثاني قُدِّمت عليه لكونه نكرة، ولو تأخَّرت لكانت صفة له أي: آتنا كائنة مِن لدنك. ﴿رَحْمَةً﴾ خاصّة تستوجب المغفرة والرِّزق والأمن مِن الأعداء، ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا﴾ الذي نحن عليه مِن مهاجَرة الكفّار والمثابَرة على طاعتك. وأصلُ التهيئة إحداث هيئة الشيء، أي: أصلحْ ورتِّب وأتممْ لنا مِن أمرنا ﴿رَشَدًا﴾ إصابة للطريق الموصِل إلى المطلوب واهتداءً إليه، وكلا الجارّين متعلِّق بـ﴿هَيِّئْ﴾ لاختلافهما في المعنى.

وتقديم المجرورَين على المفعول الصريح لإظهار الاعتناء بهما وإبرازِ الرغبة في المؤخَّر بتقديم أحواله، فإنّ تأخير ما حقُّه التقديم عمّا هو مِن أحواله المرغِّبة فيه، كما يورث شوقَ السامع إلى وروده، ينبئ عن كمال رغبة المتكلِّم فيه

« بحر القلزم [البحر الأحمر] ممّا يلي الشام، وقيل: هي آخر الحجاز وأوّل الشام، وقيل: مدينة بين الفسطاط ومكّة على شاطئ بحر القلزم، وقيل: هي مدينة لليهود الذين حرم الله عليهم صيد السمك يوم السبت. انظر: معجم البلدان للحموي، ٢٩٢/١.

١ هذه الأقوال جميعها في الكشّاف للزمخشري، ٥١٩/٢.

٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٢٩/٢.

٣ صحيح البخاري، ٩١/٣ (٢٢٧٢)؛ صحيح مسلم، ٢٠٩٩/٤ (٢٧٤٣).

٤ وفي هامش م: كذا في تفسير الكواشي. «منه». | تفسير الكواشي، ٢٨٩ظ.

واعتنائه بحصوله لا محالةَ، وكذا الكلام في تقديم قوله تعالى: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ على تقدير تعلّقه بـ﴿ءَاتِنَا﴾. وتقديمُ ﴿لَنَا﴾ على ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾[1] للإيذان مِن أوّل الأمر بكون المسئول مرغوبًا فيه لديهم، أو اجعل أمرنا رشَدًا كلَّه على أنّ ﴿مِن﴾ تجريديّة مثلُها في قولك: "رأيتُ منك أسدًا".

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أي: أنمناهم على طريقة التمثيل المبنيّ على تشبيه الإنامة الثقيلة المانعة عن وصول الأصوات إلى الآذان بضرب الحِجاب عليها. وتخصيص الآذان بالذِّكر مع اشتراك سائر المشاعر لها في الحَجْب عن الشعور عند النوم لِما أنّها المحتاج إلى الحَجْب عادة، إذ هي الطريقة للتيقّظ غالبًا لاسيَّما عند انفراد النائم واعتزاله عن الخلق. وقيل: الضرب على الآذان كناية عن الإنامة الثقيلة.[2] وحملُه على تعطيلها كما في قولهم: "ضرَب الأمير على يد الرعيّة"، أي: منَعهم مِن التصرُّف،[3] مع عدم ملاءمته لِما سيأتي مِن البعث لا يدلّ على النوم مع أنّه المراد قطعًا.

و"الفاء" في ﴿فَضَرَبْنَا﴾ كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ [الأنبياء، ٧٦/٢١] بعد قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾، فإنّ الضرب المذكور وما ترتَّب عليه مِن التقليب ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال والبعثِ وغير ذلك إيتاءُ رحمة لدُنّيّة خافية عن أبصار المتمسِّكين بالأسباب العاديّة استجابةً لدعوتهم.

﴿فِى ٱلْكَهْفِ﴾ ظرف مكان لـ﴿ضَرَبْنَا﴾. ﴿سِنِينَ﴾ ظرف زمان له باعتبار بقائه لا ابتدائه. ﴿عَدَدًا﴾ أي: ذواتَ عدد / أو تُعَدّ عددًا على أنّه مصدر، أو معدودةً على أنّه بمعنى المفعول. ووصفُ السنين بذلك إمّا للتكثير وهو الأنسَب بإظهار كمال القدرة، أو للتقليل وهو الأليَق بمقام إنكار كون القصّة عجبًا مِن بين سائر الآياتِ العجيبة، فإنّ مدّة لُبثهم كبعض يوم عنده عزّ وجلّ. [٤٠٠و]

---

١ ط س: لدنّا.

٢ كذا في فتوح الغيب للطِّيبي، ٤١٦/٩.

٣ هذا القول منقول عن قُطْرُب في تفسير القرطبي، ٣٦٣/١٠.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أي: أيقظناهم مِن تلك النومة الثقيلة الشبيهة بالموت ﴿لِنَعْلَمَ﴾ بنون العظمة، وقرئ بالياء مبنيًا للفاعل[1] بطريق الالتفات. وأيًا ما كان فهو غاية للبعث:

لكن لا بجعل العِلم مجازًا مِن الإظهار والتمييز، أو بحمله على ما يصِحّ وقوعه غايةً للبعث الحادث مِن العِلم الحالي الذي يتعلَّق به الجزاء، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة، ١٤٣/٢]، وقولِه تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [آل عمران، ١٤٠/٣]، ونظائرهما التي يتحقَّق فيها العِلم بتحقّق متعلَّقه قطعًا، فإنّ تحويل القِبلة قد ترتَّب عليه تحزُّب الناس إلى متَّبِع ومنقلِب، وكذا مداولة الأيّام بين الناس ترتَّب عليه تحزُّبهم إلى الثابت على الإيمان والمتزلزِل فيه، وتعلَّق بكلّ مِن الفريقين العِلم الحالي والإظهار والتمييز، وأمّا بَعْث هؤلاء فلم يترتَّب عليه تفرُّقهم إلى المَحصيّ وغيره حتّى يتعلَّق بهما العِلم أو الإظهار والتمييز ويتسنّى نَظْم شيء مِن ذلك في سِلك الغاية، وإنّما الذي ترتَّب عليه تفرُّقهم إلى مقدِّر تقديرًا غيرَ مصيب ومُفوِّض إلى العِلم الربّاني، وليس شيء منهما مِن الإحصاء في شيء.

بل بحَمْل النظم الكريم على التمثيل[2] المبنيّ على جَعْل العِلم عبارة عن الاختبار مجازًا بطريق إطلاقِ اسمِ المسبَّب على السبب، وليس مِن ضرورة الاختبار صدورُ الفعل المختبِر به عن المختبَر قطعًا، بل قد يكون لإظهار عَجْزه عنه على سَنن التكاليفِ التعجيزيّة، كقوله تعالى: ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة، ٢٥٨/٢]، وهو المراد ههنا، فالمعنى: بعثناهم لنعاملهم معاملة مَن يختبرهم.

﴿أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ أي: الفريقين المختلفَين في مدّة لُبثهم بالتقدير والتفويض كما سيأتي ﴿أَحْصَىٰ﴾ أي: أضبَطُ ﴿لِمَا لَبِثُوٓا۟﴾ أي: للُبثهم ﴿أَمَدًا﴾ أي: غاية فيظهَر لهم عجزهم ويفوِّضوا ذلك إلى العليم الخبير، ويتعرَّفوا حالَهم وما صنَع الله تعالى بهم

---

١ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٥١٩/٢.

٢ السياق: لكن لا بجَعْل العلم مجازًا... بل بحمل النظم...

مِن حفظ أبدانهم وأديانهم فيزدادوا يقينًا بكمال قدرته وعِلمه، ويستبصروا به أمر البعث ويكون ذلك لطفًا لمؤمني زمانِهم وآيةً بيِّنة لكفّارهم.

وقد اقتُصر ههنا مِن تلك الغايات الجليلة على ذِكر مبدئها الصادر عنه عزّ وجلّ، وفيما سيأتي على ما صدَر عنهم مِن التساؤل المؤدّي إليها، وهذا أَولى مِن تصوير التمثيل بأن يقال: بعثناهم بَعْث مَن يريد أن يعلَم... إلخ، حسبما وقَع في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [آل عمران، ١٤٠/٣] على أحد الوجوه حيث حُمل على معنى: فعلنا ذلك فِعْل مَن يريد أن يعلم مَن الثابتُ على الإيمان مِن غير الثابت، إذ ربّما يتوهَّم منه استلزام الإرادة لتحقّق المراد، فيعود المحذور فيُصار إلى جعل إرادة العِلم عبارة عن الاختبار، فاختبِر واختر.

هذا وقد قرئ: "لِيُعْلَمَ" مبنيًا للمفعول[١] ومبنيًا للفاعل[٢] مِن الإعلام على أنّ المفعول الأوّل محذوف، والجملةُ المصدّرة بـ﴿أَيُّ﴾ في موقع المفعول الثاني فقط إن جُعل العِلم عِرفانيًا، وفي موقع المفعولين إن جُعل يقينيًا، أي: ليُعلِمَ الله الناسَ أيَّ الحزبين أحصى... إلخ، وروى عطاء عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ أحد الحزبين الفِتيةُ والآخرَ الملوكُ الذين تداولوا المدينة مَلِكًا بعد مَلِك.[٣] وقيل: كلاهما مِن غيرهم. والأوّل هو الأظهر، فإنّ "اللام" للعهد ولا عهدَ لغيرهم.

[٤٠٠ظ] و"الأمد" بمعنى "المدى" / كـ"الغاية" في قولهم: "ابتداء الغاية" و"انتهاء الغاية"، وهو مفعول لـ﴿أَحْصَىٰ﴾، والجارُّ والمجرور حال منه قُدِّمت عليه لكونه نكرة. وليس معنى إحصاء تلك المدّة ضبطَها مِن حيث كمّيّتُها المتّصلة الذاتيّة، فإنّه لا يُسمّى إحصاء، بل ضبطَها مِن حيث كمّيّتُها المنفصلة العارضة لها باعتبار قسمتها إلى السنين وبلوغها مِن تلك الحيثيّة إلى مراتب الأعداد، على ما يُرشِدك إليه كون تلك المدّة عبارة عمّا سبَق مِن السنين.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الزُّهري. **المغني في القراءات** للنُّوزاوازي، ص ١١٥١.

٢ قراءة شاذّة، غير منسوبة. **اللباب** لابن عادل، ٤٣٣/١٢.

٣ **التفسير البسيط** للواحدي، ٥٤١/١٣؛ **تفسير الرازي**، ٤٣٠/٢١؛ **اللباب** لابن عادل، ٤٣٦/١٢.

ويجوز أن يُراد بـ"الأمد" معناه الوضعي بتقدير المضاف، أي: لزمان لُبثِهم وبدونه أيضًا، فإنّ اللُّبث عبارة عن الكون المستمرّ المنطبق على الزمان المذكور، فباعتبار الامتداد العارضِ له بسببه يكون له أمد لا محالةَ، لكن ليس المراد به ما يقع غاية ومنتهًى لذلك الكونِ المستمرّ باعتبار كمّيّته المتّصلة العارضة له بسبب انطباقه على الزمان الممتدّ بالذات، وهو آنُ انبعاثهم مِن نومهم، فإنّ معرفته مِن تلك الحيثيّة لا تخفى على أحد ولا تُسمّى إحصاء كما مرّ،[1] بل باعتبار كمّيّتِه المنفصلة العارضة له بسبب عروضها لزمانه المنطبق هو عليه باعتبار انقسامه إلى السنين ووصوله إلى مرتبة معيَّنة مِن مراتب العدد، كما حُقِّق في الصورة الأولى.

والفرق بين الاعتبارين أنّ ما تعلَّق به الإحصاء في الصورة السابقة نفسُ المدّة المنقسمة إلى السنين، فهو مجموع ثلاثمائةٍ وتسعِ سنين، وفي الصورة الأخيرة منتهى تلك المدّة المنقسمة إليها، أعني السنة التاسعة بعد الثلاثمائة.

وتعلُّق الإحصاء بالأمد بالمعنى **الأوّل** ظاهر، وأمّا تعلُّقه به بالمعنى **الثاني** فباعتبار انتظامه لِما تحته مِن مراتب العدد واشتماله عليها.

هذا على تقدير كون ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لِمَا لَبِثُوٓاْ﴾ مصدريّة. ويجوز أن تكون موصولة حُذف عائدها مِن الصلة أي: للذي لبثوا فيه مِن الزمان الذي عُبِّر عنه فيما قبل بسنين عددًا. فالأمدُ بمعناه الوضعي على ما تحقَّقتَه. وقيل: "اللام" مَزيدة، والموصول مفعول، و﴿أَمَدًا﴾ نصبٌ على التمييز.[2]

وأمّا ما قيل مِن أنّ ﴿أَحْصَىٰ﴾ اسم تفضيل؛ لأنّه الموافق لِما وقَع في سائر الآيات الكريمة، نحو: ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف، ٧/١٨] ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء، ١١/٤] إلى غير ذلك ممّا لا يحصى، ولأنّ كونه فعلًا ماضيًا يُشعِر بأنّ غاية البعث هو العِلم بالإحصاء المتقدِّم على البعث لا بالإحصاء المتأخِّر عنه وليس كذلك.

---

١ في كلامه على تفسير الآية الخامسة مِن سورة يونس، وتفسير الآية الثانيةَ عشرةَ مِن سورة الإسراء.

٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٣٠/٢.

وادّعاءُ أنّ مجيء أفعل التفضيل مِن المزيد عليه غيرُ قياسي مدفوعٌ بأنّه عند سيبويهِ قياس مطلقًا، وعند ابن عصفور[1] فيما ليست همزتُه للنقل،[2] ولا ريبَ في أنّ ما نحن فيه مِن ذاك القبيل، وامتناعُ عمَله إنّما هو / في غير التمييز مِن [٤٠١و] المعمولات، وأمّا أنّ التمييز يجب كونه فاعلًا في المعنى فلمانع أن يمنعه بصحّة أن يقال: أيُّهم أحفظُ لهذا الشعر وزنًا أو تقطيعًا، أو يقالَ: إنّ العامل في ﴿أَمَدًا﴾ فعل محذوف يدلّ عليه المذكور، أي: يُحصي لِما لبثوا أمدًا، كما في قوله:

وأضـــرَبَ منّـا بـالسـيـوف الـقـوانـسـا[3]

وحديث الوقوع في المحذور بلا فائدة مدفوعٌ بما أشيرَ إليه مِن فائدة الموافقة للنظائر،[4] فمع ما فيه[5] مِن الاعتساف والخلَل بمَعزِل مِن السَّداد؛ لأنّ مؤدّاه أن يكون المقصود بالاختبار إظهارَ أفضل الحزبين وتمييزَه عن الأدنى مع تحقّق أصل الإحصاء فيهما. ومِن البيّن ألّا تحقُّقَ له أصلًا، وأنّ المقصود بالاختبار إظهارُ عجز الكلّ عنه رأسًا، فهو فعل ماضٍ قطعًا. وتوهُّم إيذانه بأنّ غاية البعث هو العِلم بالإحصاء المتقدِّم عليه مردودٌ بأنّ صيغة الماضي باعتبار حال الحكاية. والله تعالى أعلمُ.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ شروع في تفصيل ما أُجمِل فيما سلف مِن قوله تعالى:

---

١ هو عليّ بن مؤمن بن محمّد بن عليّ الحضرمي الإشبيلي، أبو الحسن المعروف بابن عصفور (ت. ٦٦٩هـ/١٢٧١م). النحوي وحامل لواء العربيّة بالأندلس في عصره. وُلد بإشبيليّة ومات بتونس. وله مصنّفات مشهورة، مِن أبرز كتبه: **المقرَّب**، **الممتع في التصريف**، **وشرح الحماسة**. انظر: **بغية الوعاة** للسيوطي، ٢/٢١٠؛ **والأعلام** للزركلي، ٥/٢٧.

٢ وفي هامش م: أي: إلى التعدية. «منه».

٣ وفي هامش م: صدره:

أكـرُّ وأحـمـى لـلـحـقـيـقـة مـنـهـمُ

وقبله:

فلم أرَ مثلَ الحيّ حيًّا مُصبّحًا
ولا مثلَنا يـوم التقينا فوارسا

وهما للعبّاس بن مرداس السُّلمي في **ديوانه**، ص ٩٢-٩٣؛ **والأصمعيّات** للأصمعي، ص ٢٠٥. والعجُز موضع الاستشهاد بلا عزو في **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٥١٩؛ **والدرّ المصون** للسمين الحلبي، ٧/٤٥٠؛ **واللباب** لابن عادل، ١٢/٤٣٤.

٤ الكلام في هذا الوجه مذكور في **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٥١٩-٥٢٠؛ **والدرّ المصون** للسمين الحلبي، ٧/٤٤٩-٤٥٠؛ **واللباب** لابن عادل، ١٢/٤٣٤-٤٣٥.

٥ السياق: وأمّا ما قيل... فمع مافيه...

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ﴾... إلى آخره،[1] أي: نحن نخبِرك بتفاصيل أخبارِهم، وقد مرّ بيان اشتقاقه في مطلع سورة يوسفَ عليه السلام. ﴿نَبَأَهُم﴾ النبأ: الخبر الذي له شأن وخطر. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ إمّا صفة لمصدر محذوف، أو حالٌ مِن ضمير ﴿نَقُصُّ﴾ أو مِن ﴿نَبَأَهُم﴾، أو صفة له على رأي مَن يرى حذف الموصول مع بعض صلته، أي: نقصّ قَصصًا ملتبِسًا بالحقّ، أو نقصّه ملتبِسين به، أو نقصّ نبأهم ملتبِسًا به، أو نبأهم الملتبِس به.

ونبأُهم حسبما ذكَره محمّد بن إسحاقَ بن يسار أنّه قد مرَج أهل **الإنجيل** وعظُمت فيهم الخطايا وطغَت[2] ملوكهم، فعبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيت، وكان ممّن بالغ في ذلك وعتا عُتوًّا كبيرًا دِقيانوس، فإنّه غلا فيه غلوًّا شديدًا فجاس خلال الديار والبلاد بالعبث والفساد، وقتَل مَن خالفه مِن المتمسِّكين بدين المسيح عليه السلام، وكان يتتبّع الناس فيُخيِّرهم بين القتل وبين عبادة الأوثان، فمَن رغِب في الحياة الدنيا الدنيّة يصنع ما يصنع، ومَن آثَر عليها الحياة الأبديّة قتَله وقطَّع آرابه وعلّقها في سُور المدينة وأبوابها.

فلمّا رأى الفتية ذلك وكانوا عظماء مدينتهم، وقيل: كانوا مِن خواصّ المَلِك، قاموا فتضرّعوا إلى الله عزّ وجلّ واشتغلوا بالصلاة والدعاء. فبينما هم كذلك إذ دخَل عليهم أعوان الجبّار فأحضروهم بين يديه، فقال لهم ما قال، وخيَّرهم بين القتل وبين عبادة الأوثان، فقالوا: إنّ لنا إلهًا ملأ السماواتِ والأرضَ عظمتُه وجبروته لن ندعوَ مِن دونه أحدًا، ولن نُقِرّ بما تدعونا إليه أبدًا، فاقضِ ما أنت قاضٍ، فأمَر فنُزِع ما عليهم مِن الثياب الفاخرة وأخرجهم مِن عنده، وخرج هو إلى مدينة / نَينوى لبعض شأنه وأمهلهم إلى رجوعه ليتأمّلوا [٤٠١ظ] في أمرهم فإن تبِعوه وإلّا فعَل بهم ما فعل بسائر المسلمين.

فأزمعت الفتيةُ على الفرار بالدِّين والالتجاء إلى الكهف الحصين، فأخذ كلّ منهم مِن بيت أبيه شيئًا فتصدّقوا ببعضه وتزوّدوا بالباقي، فأوَوا إلى الكهف، فجعلوا يصلّون فيه آناءَ الليل وأطرافَ النهار، ويبتهلون إلى الله سبحانه بالأنين والجُؤار، وفوّضوا أمر نفقتهم إلى يمليخا، فكان إذا أصبح يضع عنه ثيابه الحِسان

---

١ الكهف، ١٠/١٨.

٢ س: طفت.

ويلبَس لباس المساكين ويدخُل المدينة ويشتري ما يُهمّهم ويتجسَّس ما فيها مِن الأخبار ويعود إلى أصحابه، فلبِثوا على ذلك إلى أن قدِم الجبّار المدينة فطلبهم وأحضر آباءهم، فاعتذروا بأنّهم عصَوهم ونهَبوا أموالهم وبذّروها في الأسواق وفرّوا إلى الجبل، فلمّا رأى يمليخا ما رأى مِن الشرّ رجَع إلى أصحابه وهو يبكي ومعه قليل مِن الزاد، فأخبرهم بما شاهده[1] مِن الهَول ففزِعوا إلى الله عزّ وجلّ وخرّوا له سُجّدًا، ثمّ رفعوا رءوسهم وجلسوا يتحدّثون في أمرهم، فبينما هم كذلك إذ ضرَب الله تعالى على آذانهم فناموا ونفقتهم عند رءوسهم.

فخرج دِقيانوس في طلبهم بخيله ورَجِله فوجدوهم قد دخلوا الكهف، فأمر بإخراجهم فلم يُطِق أحد أن يدخُله، فلمّا ضاق بهم ذرعًا قال قائل منهم: أليس لو كنتَ قدَرتَ عليهم قتلتَهم؟ قال: بلى، قال: فابْنِ عليهم باب الكهف ودَعْهم يموتوا جوعًا وعطشًا وليكن كهفُهم قبرًا لهم ففعل. ثم كان مِن شأنهم ما قصّ الله عزّ وعلا عنهم.[2]

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ استئناف تحقيقي مبنيّ على تقدير السؤال مِن قِبَل المخاطَب. و"الفِتْية" جَمْعُ قِلّة للفَتيّ كـ"الصِّبية" لـ"الصبيّ". ﴿ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ أوثرَ الالتفات للإشعار بعلّيّة وصف الربوبيّة لإيمانهم ولمراعاة ما صدر عنهم مِن المقالة حسبما سيُحكى عنهم.

﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ بأن ثبّتناهم على ما كانوا عليه مِن الدِّين، وأظهرنا لهم مكنوناتِ محاسنه، وفيه التفات مِن الغَيبة إلى ما عليه سبكُ النظم سِباقًا وسِياقًا مِن التكلّم.

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: قوّيناها حتّى اقتحموا مضائق الصبر على هَجْر الأهل والأوطان والنعيم والإخوان، / واجترأوا على الصَّدْع بالحقّ مِن غير [٤٠٢و] خوف وحِذار والردِّ على دِقيانوسَ الجبّار.

---

١ ط س: شهده.

٢ ط س: منهم. | بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٥/١٦٣-١٧١.

﴿إِذْ قَامُوا﴾ منصوب بـ﴿رَبَطْنَا﴾، والمرادُ بقيامهم انتصابهم لإظهار شِعار الدِّين، قال مجاهد: خرجوا مِن المدينة فاجتمعوا على غير ميعاد، فقال أكبرُهم: إنّي لأجد في نفسي شيئًا أنّ ربّي ربُّ السماوات والأرض، فقالوا: نحن أيضًا كذلك،[1] فقاموا جميعًا ﴿فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ضمّنوا دعواهم ما يُحقِّق فحواها ويقضي بمقتضاها، فإنّ ربوبيّته عزّ وجلّ لهما يقتضي ربوبيّته لِما فيهما أيَّ اقتضاء. وقيل: المراد قيامهم بين يدي الجبّار مِن غير مبالاة به حين عاتبهم على تَرْك عبادة الأصنام.[2] فحينئذ يكون ما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ﴾... إلخ،[3] منقطِعًا عمّا قبله، صادرًا عنهم بعد خروجهم مِن عنده.

﴿لَن نَّدْعُوَا﴾ لن نعبد أبدًا ﴿مِن دُونِهِ إِلَٰهًا﴾ معبودًا آخرَ لا استقلالًا ولا اشتراكًا. والعدول عن أن يقال: "ربًّا" للتنصيص على ردّ المخالفين حيث كانوا يسمُّون أصنامهم آلهةً، وللإشعار بأنّ مدار العبادة وَصْف الألوهيّة، وللإيذان بأنّ ربوبيّته تعالى بطريق الألوهيّة لا بطريق المالكيّة المجازيّة.

﴿لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ أي: قولًا ذا شطَط، أي: تجاوزٍ عن الحدّ، أو قولًا هو عين الشطَط، على أنّه وُصِف بالمصدر مبالغة، ثمّ اقتُصر على الوصف مبالغة على مبالغة، وحيث كانت العبادة مستلزِمة للقول لِما أنّها لا تَعرى مِن الاعتراف بألوهيّة المعبود والتضرّع إليه قيل: ﴿لَّقَدْ قُلْنَا﴾. و﴿إِذًا﴾ جواب وجزاء، أي: لو دعَونا مِن دونه إلهًا واللهِ لقد قلنا قولًا خارجًا عن حدّ العقول مُفرِطًا في الظلم.

﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾

﴿هَؤُلَاءِ﴾ هو مبتدأ، وفي اسم الإشارة تحقير لهم، ﴿قَوْمُنَا﴾ عطفُ بيان له، ﴿اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ خبرُه، وفيه معنى الإنكار، ﴿لَوْلَا يَأْتُونَ﴾ تخصيص فيه معنى الإنكار والتعجيز، أي: هلّا يأتون ﴿عَلَيْهِم﴾ على ألوهيّتهم أو على صحّة

---

١ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٥/١٧٢؛ والتفسير البسيط للواحدي، ١٣/٥٤٤-٥٤٥؛ واللباب لابن عادل، ١٢/٤٣٧.

٢ القول في اللباب لابن عادل، ١٢/٤٣٧.

٣ في الآية الآتية.

اتّخاذهم لها آلهةً ﴿بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ بحجّة ظاهرة الدلالة على مُدّعاهم، وهو تبكيت لهم وإلقامُ حجَر.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بنسبة الشريك إليه تعالى عن ذلك عُلوًّا كبيرًا، / والمعنى أنّه أظلمُ مِن كلّ ظالم، وإن كان سَبْك النظم على إنكار الأظلميّة مِن غير تعرّض لإنكار المساواة، كما مرّ تحقيقه في سورة هود.[1] [٤٠٢ظ]

﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾

﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ أي: فارقتموهم في الاعتقاد، أو أردتُم الاعتزال الجسماني. ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ عطف على الضمير المنصوب، و﴿مَا﴾ موصولة أو مصدريّة، أي: إذ اعتزلتموهم ومعبوديهم إلّا الله، أو وعبادتَهم إلّا عبادةَ الله، وعلى التقديرين فالاستثناءُ متّصل على تقدير كونهم مشركين كأهل مكّة، ومنقطِعٌ على تقدير تمحُّضهم في عبادة الأوثان، ويجوز كون ﴿مَا﴾ نافيةً على أنّه إخبار مِن الله تعالى عن الفِتية بالتوحيد معترِض بين ﴿إذ﴾ وجوابه.

﴿فَأْوُۥٓا۟﴾ أي: التجِئوا ﴿إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ قال الفرّاء: هو جواب ﴿إذ﴾، كما تقول: إذ فعلتَ فافعل كذا.[2] وقيل: هو دليل على جوابه، أي: إذ اعتزلتموهم اعتزالًا اعتقاديًّا فاعتزلوهم اعتزالًا جسمانيًّا، أو إذ أردتُم اعتزالهم فافعلوا ذلك بالالتجاء إلى الكهف، ﴿يَنشُرْ لَكُمْ﴾ يبسُطْ لكم ويوسِّعْ عليكم ﴿رَبُّكُم﴾ مالكُ أمرِكم ﴿مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ في الدارين ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم﴾ يسهِّلْ لكم ﴿مِّنْ أَمْرِكُم﴾ الذي أنتم بصدده مِن الفرار بالدِّين ﴿مِّرْفَقًا﴾ ما ترتفِقون وتنتفِعون به. وقرئ بفتح "الميم" وكسر "الفاء"[3] مصدرًا كـ"المَرجِع". وتقديم ﴿لَكُم﴾ في الموضعين لِما مرّ مرارًا مِن الإيذان مِن أوّل الأمر بكون المؤخَّر مِن منافعهم والتشويق إلى وروده.

---

١ في تفسير الآية الثامنةَ عشرةَ منها.

٢ انظر: معاني القرآن للفرّاء، ٢/١٣٦؛ وعنه في اللباب لابن عادل، ١٢/٤٣٩.

٣ قرأ بها نافع وابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٠.

﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾

﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ﴾ بيان لحالهم بعد ما أَوَوا إلى الكهف، ولم يصرِّح به إيذانًا بعدم الحاجة إليه لظهور جرَيانهم على موجَب الأمر به لكونه صادرًا عن رأي صائب، وتعويلًا على ما سلف مِن قوله سبحانه: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾،[1] وما لحِق مِن إضافة الكهف إليهم وكونهم في فجوة منه.

والخطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم أو لكلّ أحد ممّن يصلُح للخطاب، وليس المراد به الإخبارَ بوقوع الرؤية تحقيقًا؛ بل الإنباءُ[2] بكون الكهف بحيث لو رأيتَه ترى الشمس ﴿إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ﴾ أي: تتزاوَر وتتنحّى، بحذف إحدى التاءين. وقرئ بإدغام "التاء" في "الزاء"،[3] و"تَزْوَرّ"[4] كـ"تحمرّ"، و"تَزْوَارّ"[5] كـ"تَحْمَارّ"، و"تَزْوَئِرُّ"،[6] وكلّها مِن الزَّوَر: وهو المَيل.

﴿عَن كَهْفِهِمْ﴾ / الذي أوَوا إليه، فالإضافة لأدنى ملابسة. ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ [٤٠٣و]
أي: جهةَ ذاتِ يمين الكهف عند توجّه الداخل إلى قعره، أي: جانبه الذي يلي المَغرِب فلا يقع عليهم شُعاعها فيؤذيَهم، ﴿وَإِذَا غَرَبَت﴾ أي: تراها عند غروبها ﴿تَّقْرِضُهُمْ﴾ أي: تقطَعهم مِن "القطيعة والصَّرْم" ولا تقربهم ﴿ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي: جهةَ ذاتِ شمال الكهف، أي: جانبه الذي يلي المَشرِق. وكان ذلك بتصريف الله سبحانه على مِنهاج خرق العادة كرامةً لهم.

---

١ الكهف، ١٠/١٨.

٢ وفي هامش م: يتضمّن الإنباء معنى الإيذان والإشعار. «منه».

٣ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣١٠/٢.

٤ قرأ بها ابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣١٠/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجَحدري وأيّوب السِّخْتياني وابن أبي عبلة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٢؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٥.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي معاذ النحْوي والوليد بن مُسلم عن ابن عامر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٢؛ المغني في القراءات للنُّوْزاوازي، ص ١١٥٢.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ جملة حاليّة مُبيّنة لكون ذلك أمرًا بديعًا، أي: تراها تميل عنهم يمينًا وشمالًا ولا تحوم حولهم، مع أنّهم في متّسع مِن الكهف معرَّض لإصابتها لولا أن صرفتْها عنهم يد التقدير.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما صنع الله بهم مِن تزاوُر الشمس وقَرْضها حالتَي الطلوع والغروب مع كونهم في موقع شُعاعِها ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ العجيبة الدالّة على كمال عِلمه وقدرته وحقّيّة التوحيد وكرامة أهلِه عنده سبحانه وتعالى. وهذا قبل أن سدّ دِقيانوسُ باب الكهف.

وقيل: كان باب الكهف شماليًّا مستقبلَ بنات النعش،[1] وأقربُ المشارق والمغارب إلى محاذاته مشرِق رأس السرطان ومغربِه،[2] والشمسُ إذا كان مدارها مدارَه تطلُع مائلةً عنه مقابِلة لجانبه الأيمن وهو الذي يلي المَغرِب، وتغرُب محاذيةً لجانبه الأيسر فيقع شعاعها على جنبَيه وتُخلِّل عفونتَه وتُعدِّل هواءه، ولا يقع عليهم فيؤذيَ أجسادهم ويُبليَ ثيابهم، ولعلّ مَيلَ الباب إلى جانب الغرب كان أكثر ولذلك أُوقِع التزاورُ على كهفهم والقرضُ على أنفسهم. فـ﴿ذَٰلِكَ﴾ حينئذ إشارة إلى إيوائهم إلى كهفٍ هذا شأنه، وأمّا جعلُه إشارة إلى حفظ الله سبحانه إيّاهم في ذلك الكهف تلك المدّة الطويلة، أو إلى اطّلاعه سبحانه لرسوله[3] صلّى الله عليه وسلّم على أخبارهم فلا يساعده إيراده في تضاعيف القصّة.

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ إلى الحقّ بالتوفيق له / ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ الذي أصاب الفلاح. [٤٠٣ظ]
والمراد إمّا الثناء عليهم والشهادة لهم بإصابة المطلوب، والإخبارُ بتحقيق ما أمّلوه مِن نشر الرحمة وتهيئة المرافق، أو التنبيهُ على أنّ أمثال هذه الآية كثيرة ولكنّ المنتفِع بها مَن وفّقه الله تعالى للاستبصار بها.

﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ أي: يخلق فيه الضلال لصَرْف اختياره إليه ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ﴾ أبدًا وإن بالغتَ في التتبّع والاستقصاء ﴿وَلِيًّا﴾ ناصرًا ﴿مُّرْشِدًا﴾ يهديه إلى ما ذُكر مِن الفلاح لاستحالة وجوده في نفسه، لا أنّك لا تجِده مع وجوده أو إمكانه.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٢١.

٢ وفي هامش م: التذكير باعتبار أنّه برج.

٣ ط س: لرسول الله.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾

﴿وَتَحْسَبُهُمْ﴾ بفتح "السين"، وقرئ بكسرها[1] أيضًا، والخطابُ فيه كما فيما سبق. ﴿أَيْقَاظًا﴾ جمع "يَقِظ" بكسر "القاف" وفتحها: وهو اليقظان. ومدارُ الحُسبان انفتاح عيونهم على هيئة الناظر. وقيل: كثرة تقلّبهم.[2] ولا يلائمه قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ﴾. ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ أي: نِيام، وهو تقرير لِما لم يُذكَر فيما سلَف اعتمادًا على ذِكره السابق مِن الضرب على آذانهم.

﴿وَنُقَلِّبُهُمْ﴾ في رقدتهم ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ نصب على الظرفية، أي: جهةً تلي أيمانهم، ﴿وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ أي: جهةً تلي شمائلهم كيلا تأكل الأرض ما يليها مِن أبدانهم. قال ابن عبّاس رضي الله تعالى عنهما: لو لم يُقلَّبوا لأكلَتْهم الأرض.[3] قيل: لهم تقلُّبتان في السَّنة.[4] وقيل: تقلُّبة واحدة يوم عاشوراء.[5] وقيل: في كلّ تسع سنين.[6] وقرئ: "يُقَلِّبُهُمْ"[7] على الإسناد إلى ضمير الجلالة، و"تَقَلُّبَهُمْ"[8] على المصدر منصوبًا بمضمر ينبئ عنه ﴿وَتَحْسَبُهُمْ﴾، أي: وترى تقلُّبَهم.

﴿وَكَلْبُهُم﴾ قيل: هو كلب مرّوا به فتبِعهم فطردوه مِرارًا فلم يرجِع، فأنطقه الله تعالى فقال: لا تخشَوا جانبي فإنّي أحبّ أحبّاء الله فناموا حتّى أحرُسَكم.[9] وقيل: هو كلبُ راعٍ قد تبِعهم على دينهم،[10] ويُؤيِّده قراءة "كَالِبُهُمْ"،[11] إذ الظاهر

---

١ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٢١.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٢١.

٣ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٥/١٨٦؛ والتفسير البسيط للواحدي، ١٣/٥٥٨؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/١٥٨.

٤ مَرويّ عن أبي هريرة في التفسير البسيط للواحدي، ١٣/٥٥٨؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/١٥٨؛ واللباب لابن عادل، ١٢/٤٤٤.

٥ القول في معالم التنزيل للبغوي، ٥/١٥٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٥٢١.

٦ مرويّ عن مجاهد في التفسير البسيط للواحدي، ١٣/٥٥٨؛ واللباب لابن عادل، ١٢/٤٤٤.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن عِمران بن حِطّان عن الحسن. المغني في القراءات للنُّوْزاوازي، ص ١١٥٤.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن معاذ بن جبل والحسن وعِمران بن حُدير. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٢؛ المغني في القراءات للنُّوْزاوازي، ص ١١٥٣.

٩ مرويّ عن الكلبي في اللباب لابن عادل، ١٢/٤٤٦؛ وبلا عزو في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٣١-٣٣٢.

١٠ مرويّ عن ابن عبّاس في اللباب لابن عادل، ١٢/٤٤٦؛ وبلا عزو في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٣١.

١١ قراءة شاذّة، مرويّة عن جعفر الصادق. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٦.

لُحوقه بهم. وقيل: هو كلبُ صيدِ أحدهم أو زرعِه أو غنمِه. واختُلف في لونه، فقيل: كان أنمرَ، وقيل: أصفرَ، وقيل: أصهبَ، وقيل: غير ذلك،[١] وقيل: كان اسمه قطمير،[٢] وقيل: زبّان،[٣] وقيل: تتود،[٤] وقيل: قطمون، / وقيل: ثور.[٥] قال [٤٠٤و] خالد بن مَعْدان:[٦] «ليس في الجنّة مِن الدوابّ إلّا كلب أصحاب الكهف وحمارُ بلعم».[٧] وقيل: لم يكن ذلك مِن جنس الكلاب؛ بل كان أسدًا.[٨]

﴿بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ حكايةُ حال ماضية، ولذلك أُعمِل اسم الفاعل،[٩] وعند الكسائي وهشام[١٠] وأبي جعفر مِن البصريّين يجوز إعماله مطلقًا.[١١] والذراع: مِن المِرفق إلى رأس الإصبع الوسطى. ﴿بِٱلْوَصِيدِ﴾ أي: بموضع الباب مِن الكهف.

﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لو عاينتَهم وشاهدتَهم، وأصل الاطّلاع الإشراف على الشيء بالمعايَنة والمشاهَدة، وقرئ بضمّ "الواو"،[١٢] ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾

---

١ هذه الأقوال مع أخرى في **معالم التنزيل** للبغوي، ١٥٨/٥؛ **واللباب** لابن عادل، ٤٤٦/١٢. وفيهما أنّ القول بأنّ لونه أصفر مرويّ عن مقاتل.

٢ مرويّ عن ابن عبّاس في **معالم التنزيل** للبغوي، ١٥٨/٥؛ **واللباب** لابن عادل، ٤٤٦/١٢.

٣ مرويّ عن عليّ في **معالم التنزيل** للبغوي، ١٥٨/٥؛ **واللباب** لابن عادل، ٤٤٦/١٢. وفي مطبوعها «ريّان».

٤ مرويّ عن الأوزاعي في **معالم التنزيل** للبغوي، ١٥٨/٥، وفي مطبوعه «بتور»؛ **واللباب** لابن عادل، ٤٤٦/١٢. وفي مطبوعه «يشور».

٥ مرويّ عن السُّدّي في **معالم التنزيل** للبغوي، ١٥٨/٥، وفي مطبوعه «تور»؛ **واللباب** لابن عادل، ٤٤٦/١٢، وفي مطبوعه «يور».

٦ هو خالد بن معدان بن أبي كرب الكلاعي الحمصي، أبو عبد الله (ت. ١٠٤هـ/٧٢٢م). الإمام شيخ أهل الشام. قيل: أصله مِن اليمن وإقامته في حمص، تابعي ثقة، اشتهر بالعبادة والعلم والهيبة. أدرك سبعين مِن أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وحدّث عن خلق مِن الصحابة. روى عن ثوبان وأبي أمامة الباهلي ومعاوية وأبي هريرة وابن عمر وغيرهم، وأرسل عن معاذ وعائشة وأبي الدرداء وغيرهم، روى عنه محمّد بن إبراهيم التيمي وحسان بن عطيّة وغيرهم. كان كثير التسبيح، فلمّا مات بقيت إصبعه تتحرّك وكأنّه يسبّح. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٥٣٦/٤-٥٤٠؛ **والأعلام** للزركلي، ٢٩٩/٢.

٧ **معالم التنزيل** للبغوي، ١٥٨/٥؛ **اللباب** لابن عادل، ٤٤٦/١٢.

٨ مرويّ عن ابن جُريج في **معالم التنزيل** للبغوي، ١٥٨/٥؛ **واللباب** لابن عادل، ٤٤٦/١٢.

٩ الكلام في **الكشّاف** للزمخشري، ٥٢١/٢.

١٠ هو هشام بن معاوية، أبو عبد الله (ت. ٢٠٩هـ/٨٢٤م). نحوي ضرير مِن أهل الكوفة، وهو أحد أعيان أصحاب الكسائي. له مِن الكتب: **الحدود، المختصر، القياس، كلّها في النحو**. انظر: **بغية الوعاة** للسيوطي، ٣٢٨/٢؛ **والأعلام** للزركلي، ٨٨/٨.

١١ انظر تفصيل أقوالهم في **التذييل والتكميل** لأبي حيّان، ٣٢٤/١٠-٣٤٥.

١٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى والأعمش. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٨٦.

هربًا ممّا شاهدتَ منهم، وهو إمّا نصب على المصدريّة مِن معنى ما قبله، إذ التولية والفِرار مِن وادٍ واحد، وإمّا على الحاليّة بجعل المصدر بمعنى الفاعل، أي: فارًّا، أو بجعل الفاعل مصدرًا مبالغة، كما في قولها:[1]

فـإنّـمـا هـيَ إقـبـالٌ وإدبـارُ[2]

وإمّا على أنّه مفعول له.

﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ وقرئ بضمّ العين،[3] أي: خوفًا يملأ الصدر ويُرعِبه، وهو إمّا مفعول ثانٍ أو تمييز. وذلك لِما ألبسهم الله عزّ وجلّ مِن الهَيبة والهيئة، كانت أعينهم مفتّحة كالمستيقِظ الذي يريد أن يتكلّم. وقيل: لطول أظفارهم وشُعورهم.[4] ولا يساعده قولهم: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾،[5] وقولُه: ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾،[6] فإنّ الظاهر مِن ذلك عدم اختلاف أحوالِهم في أنفسهم. وقيل: لعِظم أجرامِهم.[7]

ولعلّ تأخيرَ هذا مِن[8] ذِكر التولية للإيذان باستقلال كلّ منهما في الترتّب على الاطّلاع، إذ لو رُوعيَ ترتيب الوجود لَتبادر إلى الفهم ترتُّب المجموع مِن حيث هو هو عليه، وللإشعار بعدم زوال الرُّعب بالفِرار، كما هو المعتاد.

وعن معاويةَ رضي الله عنه:[9] لمّا غزا الروم فمرّ بالكهف، قال: لو كُشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم، فقال له ابن عبّاس رضي الله عنهما: ليس لك ذلك قد منع الله تعالى مَن هو خير منك، حيث قال: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ الآية، قال معاوية:[10] لا أنتهي حتّى أعلم / عِلمَهم، فبعث ناسًا وقال لهم: اذهبوا فانظُروا، ففعلوا [٤٠٤ظ] فلمّا دخلوا الكهف بعث الله تعالى ريحًا فأحرقتْهم.[11] وقرئ بتشديد "اللام"[12]

---

١ وفي هامش م: خنساء. «منه».
٢ مضى تخريجه عند تفسير الآية السادسة والأربعين مِن سورة هود.
٣ قرأ بها ابن عامر والكسائي وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢١٦.
٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٢١.
٥ في الآية الآتية.
٦ في الآية الآتية.
٧ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٢١.
٨ س: عن.
٩ ط س - رضي الله عنه.
١٠ ط س + رضي الله عنه.
١١ بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٥/١٥٩؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٥٢١.
١٢ قرأ بها ابن نافع وابن كثير وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٠.

على التكثير، وبإبدال "الهمزة" ياء مع التخفيف[1] والتشديد.[2]

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أي: كما أنمناهم وحفِظنا أجسادَهم مِن البِلى والتحلّل آيةً دالّة على كمال قدرتنا بعثناهم مِن النوم ﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾ أي: ليسأل بعضهم بعضًا فيترتَّب عليه ما فُصّل مِن الحِكَم البالغة. وجعلُه غايةً للبعث المعلَّل فيما سبَق بالاختبار مِن حيث إنّه مِن أحكامه المترتِّبة عليه والاقتصارُ على ذِكره لاستتباعه لسائر آثاره.

﴿قَالَ﴾ استئناف لبيان تساؤلِهم ﴿قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ هو رئيسهم واسمه مَكْشَلِينِيا ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ في منامكم؟ لعلّه قاله لِما رأى مِن مخالفة حالهم لِما هو المعتادُ في الجملة. ﴿قَالُوا۟﴾ أي: بعضُهم ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ قيل: إنّما قالوه لِما أنّهم دخلوا الكهف غُدوةً وكان انتباههم آخرَ النهار،[3] فقالوا: لبثنا يومًا، فلمّا رأوا أنّ الشمس لم تغرُب بعدُ، قالوا: أو بعضَ يوم، وكان ذلك بناءً على الظنّ الغالب، فلم يُعزَوا إلى الكذِب.

﴿قَالُوا۟﴾ أي: بعض آخرُ منهم بما سنَح لهم مِن الأدلّة أو بإلهام مِن الله سبحانه: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ أي: أنتم لا تعلمون مدّة لُبثِكم وإنّما يعلمها الله سبحانه. وهذا ردّ منهم على الأوّلين بأجمل ما يكون مِن مراعاة حُسن الأدب، وبه يتحقّق التحزّب إلى الحزبين المعهودين فيما سبَق. وقد قيل: القائلون جميعُهم ولكن في حالتين. ولا يساعده النظم الكريم؛ فإنّ الاستئناف في الحكاية والخطاب في المحكي يقضي بأنّ الكلام جارٍ على منهاج المحاورة والمجاوبة، وإلّا لقيل: ثمّ قالوا: ربُّنا أعلمُ بما لبثنا.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الزُّهري. **الدرّ المصون** للسمين الحلبي، ٤٦١/٧.

٢ قرأ بها أبو جعفر. **الدرّ المصون** للسمين الحلبي، ٤٦١/٧.

٣ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٥٢٢/٢.

﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ﴾ قالوه إعراضًا عن التعمّق في البحث وإقبالًا على ما يُهمّهم بحسب الحال، / [1] كما ينبئ عنه "الفاء". و"الورِق": [٤٠٥و] الفِضّة مضروبة أو غيرَ مضروبة. ووصفُها باسم الإشارة يُشعر بأنّ القائل ناولها بعض أصحابه ليشتريَ بها قوتَ يومِهم ذلك. وقرئ بسكون "الراء"،[2] وبإدغام "القاف" في "الكاف"،[3] وبكسر "الواو" وبسكون "الراء" مع الإدغام.[4] وحَمْلُهم لها دليل على أنّ التزوّد لا ينافي التوكّل على الله تعالى.

﴿فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ﴾ أي: أهلها ﴿أَزۡكَىٰ﴾ أحلُّ وأطيبُ، أو أكثرُ وأرخصُ ﴿طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ﴾ أي: مِن ذلك الأزكى طعامًا ﴿وَلۡيَتَلَطَّفۡ﴾ وليتكلّف اللُّطف في المعاملة كيلا يُغبَن، أو في الاستخفاء لئلّا يُعرَف ﴿وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدٗا﴾ مِن أهل المدينة، فإنّه يستدعي شيوع أخباركم، أي: لا يفعلنّ ما يؤدّي إلى ذلك، فالنهيُ على الأوّل تأسيس وعلى الثاني تأكيدٌ للأمر بالتلطّف.

﴿إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ٢٠﴾

﴿إِنَّهُمۡ﴾ تعليل لِما سبَق مِن الأمر والنهي، أي: لِيبالِغْ في التلطّف وعدمِ الإشعار؛ لأنّهم ﴿إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: يطّلعوا عليكم أو يظفَروا بكم، والضميرُ للأهل المقدّر في ﴿أَيُّهَا﴾، ﴿يَرۡجُمُوكُمۡ﴾ إن ثبتُّم على ما أنتم عليه ﴿أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ﴾ أي: يُصيّروكم إليها ويُدخلوكم فيها كُرهًا، مِن العَود بمعنى الصيرورة، كقوله تعالى: ﴿أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف، ٨٨/٧]. وقيل: كانوا أوّلًا على دينهم.[5] وإيثار كلمة ﴿فِي﴾ على كلمة "إلى" للدلالة على الاستقرار الذي هو أشدّ شيء عندهم كراهة. وتقديم احتمال الرجم على احتمال الإعادة؛ لأنّ الظاهر مِن حالهم هو الثبات على الدِّين المؤدّي إليه.

---

١ وقع هنا اضطراب في الألواح في نسخة المؤلّف، فتقدّمت عشر منها على عشر بعدُ.

٢ قرأ بها أبو عمرو وحمزة وخلف وأبو بكر ورَوح. النشر لابن الجزري، ٣١٠/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٦.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي رجاء. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٦.

٥ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٣٣/٢.

وضمير الخِطاب في المواضع الأربعة للمبالغة في بعث[1] المبعوث على الاستخفاء وحثّ الباقين على الاهتمام بالتوصية، فإنّ إمحاض النُّصح أدخلُ في القَبول واهتمامَ الإنسان بشأن نفسه أكثرُ وأوفَرُ.

﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا﴾ أي: إن دخلتُم فيها، ولو بالكُره والإلجاء، لن تفوزوا بخير ﴿أَبَدًا﴾ لا في الدنيا ولا الآخرة. وفيه مِن التشديد في التحذير ما لا يخفى.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾

[٤١٥ظ] ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: وكما أنمناهم وبعثناهم لِما مرّ مِن ازديادهم / في مراتب اليقين ﴿أَعْثَرْنَا﴾ أي: أطلعنا الناس ﴿عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ﴾ أي: الذين أعثرناهم عليهم بما عاينوا مِن أحوالهم العجيبة ﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ أي: وعدَه بالبعث أو موعودَه الذي هو البعث، أو أنّ كلّ وعدِه أو كلَّ موعوده فيدخُل فيه وعده بالبعث والبعث الموعود دخولًا أوليًّا، ﴿حَقٌّ﴾ صادق لا خُلف فيه، أو ثابت لا مردَّ له؛ لأنّ نومهم وانتباههم كحال مَن يموت ثمّ يُبعث، ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ أي: القيامة التي هي عبارة عن وقت بَعْث الخلائق جميعًا للحساب والجزاء ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ لا شكّ في قيامها، فإنّ مَن شاهد أنّه جلّ وعلا توفّى نفوسهم وأمسَكها ثلاثمائة سنةٍ وأكثرَ حافظًا أبدانَها مِن التحلّل والتفتّت ثمّ أرسلها إليها، لا يبقى له شائبة شكّ في أنّ وعده تعالى حقّ وأنّه يبعث مَن في القبور فيردّ إليهم أرواحَهم فيُحاسبهم ويجزيهم بحسب أعمالهم.

﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ﴾ ظرف لقوله: ﴿أَعْثَرْنَا﴾ قُدِّم عليه الغاية إظهارًا لكمال العناية بذِكرها، لا لقوله: ﴿لِيَعْلَمُوٓاْ﴾ كما قيل؛[2] لدِلالته على أنّ التنازع يحدُث بعد الإعثار وليس كذلك، أي: أعثرناهم عليهم حين يتنازعون ﴿بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ ليرتفع الخلاف ويتبيّنَ الحقّ. قيل: المتنازع فيه أمر دينهم حيث كانوا مختلفين في البعث:

---

[1] م ط س: حَمْل [صُحِّح في هامش م ط].

[2] القول في التبيان للعكبري، ٨٤٢/٢.

فمِن مُقِرّ له، وجاحدٍ به، وقائل يقول ببعث الأرواح دون الأجساد، وآخرَ يقول ببعثهما معًا.[١]

قيل: كان مَلِك المدينة حينئذ رجلًا صالحًا مؤمنًا، وقد اختلف أهل مملكته في البعث حسبما فُصِّل، فدخَل المَلِك بيته وأغلق بابه ولبس مِسْحًا وجلس على رماد وسأل ربّه أن يُظهِر الحقّ، فألقى الله عزّ وجلّ في نفس رجل مِن رُعيانهم فهدَم ما سدّ به دِقيانوسُ باب الكهف ليتّخذه حظيرة لغنمه، فعند ذلك بعثهم الله تعالى، فجرى بينهم مِن التقاوُل ما جرى.[٢]

رُوي أنّ المبعوث لمّا دخل المدينة أخرج الدِّرهم ليشتريَ به الطعام وكان على ضَرْب دِقيانوسَ، فاتّهموه بأنّه وجَد كنزًا، فذهبوا به إلى المَلِك فقصّ عليه القِصّة، / فقال بعضهم: إنّ آباءنا أخبرونا بأنّ فِتية فرّوا بدينهم مِن دِقيانوسَ فلعلّهم [٤١٦و] هؤلاء، فانطلق المَلِك وأهل المدينة مِن مسلم وكافر وأبصروهم وكلّموهم، ثمّ قالت الفِتية للملك: نستودعك الله ونُعيذك به مِن شرّ الإنس والجنّ، ثمّ رجعوا إلى مضاجعهم فماتوا، فألقى المَلِك عليهم ثيابه، وجعَل لكلّ منهم تابوتًا مِن ذهَب، فرآهم في المنام كارهين للذهب، فجعَلها مِن الساج،[٣] وبنى على باب الكهف مسجِدًا.[٤] وقيل: لمّا انتهَوا إلى الكهف قال لهم الفتى: مكانكم حتّى أدخُل أوّلًا لئلّا يفزعوا، فدخل فعمِيَ عليهم المدخل فبنَوا ثمّة مسجِدًا.[٥]

وقيل: المتنازَع فيه أمر الفتية قبل بعثهم، أي: أعثرنا عليهم حين يتذاكرون بينهم أمرهم وما جرى بينهم وبين دِقيانوسَ مِن الأحوال والأهوال ويتلقّون ذلك مِن الأساطير وأفواه الرجال.

---

١ مرويّ عن عكرمة بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٥/١٩٨؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/١٦١؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٢٣.

٢ مرويّ بمعناه عن ابن إسحاق في جامع البيان للطبري، ١٥/١٩٩-٢٠٠؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٢٣.

٣ السّاج: خشب يجلب مِن الهند. لسان العرب لابن منظور، «سوج».

٤ مروي عن وهب بن منبّه بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٥/١٩٧-١٩٨؛ وبلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٢٣.

٥ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٣٤.

وعلى التقديرين فـ"الفاء" في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَقَالُواْ﴾ فصيحة،[1] أي: أعثرناهم عليهم فرأوا ما رأوا فماتوا فقالوا، أي: قال بعضهم: ﴿ٱبْنُواْ عَلَيْهِم﴾ أي: على باب كهفِهم ﴿بُنْيَٰنًا﴾ لئلّا يتطرّقَ إليهم الناس، ضنًّا بتربتهم ومحافظةً عليها.

وقوله تعالى: ﴿رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ مِن كلام المتنازِعين، كأنّهم لمّا رأوا عدم اهتدائهم إلى حقيقة حالهم مِن حيث النسب ومِن حيث العددُ ومِن حيث اللُّبث في الكهف قالوا ذلك تفويضًا للأمر إلى علّام الغيوب، أو مِن كلام الله سبحانه ردًّا لقول الخائضين في حديثهم مِن أولئك المتنازِعين.

وقيل: هو أمرهم[2] وتدبيرهم عند وفاتهم،[3] أو شأنهم في الموت والنوم، حيث اختلفوا في أنّهم ماتوا أو ناموا كما في أوّل مرّة، فـ﴿إِذْ﴾ حينئذ متعلِّق بقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾ وهم المَلِك والمسلمون: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ﴾ معطوف على ﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾، وإيثارُ صيغة الماضي للدلالة على أنّ هذا القول ليس ممّا يستمرّ ويتجدّد كالتنازع. وقيل: متعلقٌ بـ"اذكر" مضمَرًا. وأمّا تعلّقه بـ﴿أَعْثَرْنَا﴾ فيأباه أنّ إعثارهم ليس في زمان تنازُعهم فيما ذُكر؛ بل قبله. وجعلُ وقت التنازع ممتدًّا يقع في بعضه الإعثارُ وفي بعضه التنازعُ[4] / تعسّفٌ لا يخفى، مع أنّه لا مخصِّصَ لإضافته إلى التنازُع، وهو مؤخَّر في الوقوع. [٤١٦ظ]

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۬ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾

﴿سَيَقُولُونَ﴾ الضمير في الأفعال الثلاثة للخائضين في قصّتهم في عهد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مِن أهل الكتاب والمسلمين، لكن لا على وجه

---

١ كما في فتوح الغيب للطِّيبي، ٩/٤٣٣؛ وشرح مشكلات الكشّاف لقطب الدين الرازي، ٤١٩و.

٢ وفي هامش م: أي: المتنازع فيه. «منه».

٣ القول في الكشف عن مشكلات الكشّاف للقزويني، ١٩٥و.

٤ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٣٣-٣٣٤.

إسناد كلّ منها إلى كلّهم؛ بل إلى بعضهم: ﴿ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ أي: هم ثلاثة أشخاص رابعهم، أي: جاعلُهم أربعة بانضمامه إليهم كلبُهم. قيل: قالته اليهود،[١] وقيل: قاله السيِّد مِن نصارى نَجرانَ وكان يعقوبيًّا.[٢] وقرئ: "ثَلَاثَةٌ"[٣] بإدغام "الثاء" في "التاء".

﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ قيل: قالته النصارى، أو العاقب منهم وكان نَسْطوريًّا.[٤] ﴿رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾ رميًا بالخبر الخفيّ الذي لا مُطَّلَعَ عليه، أو ظنًّا بالغيب مِن قولهم: "رجَم بالظنّ" إذا ظنّ. وانتصابه على الحاليّة مِن الضمير في الفعلين جميعًا، أي: راجمين، أو على المصدريّة منهما، فإنّ الرَّجم والقول واحد، أو مِن محذوف مستأنَف أو واقع موقعَ الحال مِن ضمير الفعلين معًا، أي: يرجُمون رجمًا، وعدم إيراد "السين" للاكتفاء بعطفه على ما فيه ذلك.

﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ هو ما يقوله المسلمون بطريق التلقّن مِن هذا الوحي وما فيه ممّا يُرشدهم إلى ذلك مِن عدم نظمِه في سِلك الرَّجْم بالغيب. وتغييرُ سَبكه بزيادة "الواو" المفيدة لزيادة وَكادة النسبة فيما بين طرفيها، لا بوحي آخرَ كما قيل.

﴿قُل﴾ تحقيقًا للحقّ وردًّا على الأوّلين: ﴿رَبِّيٓ أَعْلَمُ﴾ أي: أقوى عِلمًا ﴿بِعِدَّتِهِم﴾ بعددهم ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ﴾ أي: ما يعلم عِدّتهم، أو ما يعلمهم فضلًا عن العِلم بعِدّتهم ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ مِن الناس قد وفّقهم الله للاستشهاد بتلك الشواهد.

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: حين وقعت "الواو" انقطعت العِدّة، وعليه مدار قوله رضي الله تعالى عنه: أنا مِن ذلك القليل.[٥] ولو كان في ذلك وحيٌ آخرُ لما خفيَ عليه ولَما احتاج إلى الاستشهاد بـ"الواو"، ولكان المسلمون أسوة له في العِلم بذلك.

---

١ القول في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣٣٤/٢.

٢ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٥٢٤/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٨٧.

٤ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٥٢٤/٢.

٥ بلفظ قريب في **جامع البيان** للطبري، ٢١٩/١٥؛ و**التفسير البسيط** للواحدي، ٥٧٩/١٣؛ و**معالم التنزيل** للبغوي، ١٦٢/٥.

وعن عليّ كرّم الله تعالى وجهه أنّهم سبعةُ نفر أسماؤُهم: يمليخا ومَكْشَلِينِيا ومَشْلِينِيَا، هؤلاء أصحابُ يمين الملك، وكان عن يساره مَرْنُوش ودَبَرْنُوش وشَاذَنُوش وكان يستشير هؤلاء الستّةَ في أمره، والسابعُ الراعي الذي وافقهم حين / هربوا مِن ملكهم دِقيانوسَ واسمه كَفِيشَيْطَطْيُوش.[1] [٤١٧و]

﴿فَلَا تُمَارِ﴾ "الفاء" لتفريع النهي على ما قبله، أي: إذ قد عرفتَ جَهْل أصحاب القولين الأوّلَين فلا تُجادلهم ﴿فِيهِمْ﴾ في شأن الفِتية ﴿إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ قَدْر ما تعرَّض له الوحيُ مِن وَصْفهم بالرَّجْم بالغيب، وعدمِ العِلم على الوجه الإجمالي، وتفويضِ العلم إلى الله سبحانه مِن غير تصريح بجَهْلهم وتفضيح لهم، فإنّه ممّا يُخِلّ بمكارم الأخلاق.

﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم﴾ في شأنهم ﴿مِنْهُمْ﴾ مِن الخائضين ﴿أَحَدًا﴾ فإنّ فيما قُصّ عليك لَمَندوحةً عن ذلك، مع أنّه لا عِلمَ لهم بذلك. وقال عطاء: إلّا قليل مِن أهل الكتاب.[2] فالضمائر الثلاثة في الأفعال الثلاثة لهم وما ذُكر مِن الشواهد لإرشاد المؤمنين إلى صحّة القولِ الثالث، وفيه مَحيصٌ عمّا في الأوّل مِن التكلّف في جعل أحد الأقوال المحكيّة المنظومة في سِمْط واحد ناشئًا عن الحكاية مع كون الأخيرين بخلافه، ووضوحٌ في سبب حذف المفعول في ﴿لَا تُمَارِ﴾، والمعنى حينئذ: وإذ قد وقفتَ على أنّ كلّهم ليسوا على خطأ في ذلك فلا تُجادِلْهم إلّا جدالًا ظاهرًا نطَق به الوحيُ المُبين، مِن غير تجهيل لجميعهم، فإنّ فيهم مُصيبًا وإن قلّ.

والنهيُ عن الاستفتاء لدَفْع ما عسى يُتوهَّم مِن احتمال جوازه أو احتمالِ وقوعه بناءً على إصابة بعضهم، فالمعنى: لا تراجِعْ إليهم في شأن الفِتية ولا تُصدِّق القول الثالث مِن حيث صدورُه عنهم؛ بل مِن حيث التلقّي مِن الوحي.

---

١ ط س: كَفِيشَيْطَطْيُوس. | وفي هامش م: كذا ذكره الإمام الواحدي في الوسيط. «منه». | وهو عن ابن عبّاس في التفسير الوسيط للواحدي، ١٤٢/٣، عن عليّ رضي الله عنه في اللباب لابن عادل، ٤٥٧/١٥؛ وقريب منه عن ابن عبّاس في معالم التنزيل للبغوي، ١٦٢/٥. وأكثر هذه الأسماء واردة في مطبوعاتها على غير هيئة رسمها ههنا.

٢ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٢١٩/١٥؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٥/٢.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ﴾ أي: لأجل شيء تعزِم عليه ﴿إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ﴾ الشيءَ ﴿غَدًا﴾ أي: فيما يُستقبل مِن الزمان مطلقًا فيدخُل فيه الغدُ دخولًا أوّليًا، فإنّه نزل حين قالت اليهود لقريش: سلُوه عن الروح وعن أصحاب الكهف وذي القرنين، فسألوه عليه السلام فقال: «ائتوني غدًا أُخبرْكم»،[1] ولم يستثنِ فأبطأ عليه الوحيُ حتّى شقّ عليه وكذّبتْه قريش. وما قيل مِن أنّ المدلول بالعبارة هو الغد وما بعد ذلك مفهوم بطريق دلالة النصّ، يردّه أنّ ما بعده ليس بمعناه في مناط النهي، فإنّ وسعة المجال دليل القدرة. فليُتأمّلْ.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ / استثناء مفرَّغ مِن النهي، أي: لا تقولنّ ذلك في حال مِن الأحوال إلّا حالَ ملابسته بمشيئته تعالى على الوجه المعتاد، وهو أن يقال: "إن شاء الله"، أو في وقت مِن الأوقات إلّا وقتَ أن يشاء الله أن تقوله، لا مطلقًا؛ بل مشيئةَ إذنٍ، فإنّ النسيان أيضًا بمشيئته تعالى. ولا مساغَ لتعليقه بـ﴿فَاعِلٌ﴾[2] لعدم سداد استثناء اقتران المشيئة بالفعل ومنافاةِ استثناء اعتراضها النهيَ. وقيل: الاستثناء جارٍ مَجرى التأبيد، كأنّه قيل: لا تقولنّه أبدًا، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَكُونُ[3] لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف، ٨٩/٧].[4] [٤١٧ظ]

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ بقولك: "إن شاء الله" متدارِكًا له ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ إذا فرَط منك نسيان ثمّ ذكرتَه، وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «ولو بعد سَنة ما لم يحنَث».[5] ولذلك جُوِّز تأخير الاستثناء، وعامةُ الفقهاء على خلافه؛ إذ لو صحّ ذلك

---

١ بمعناه في جامع البيان للطبري، ٢٢٤/١٥؛ وبلفظه في التفسير البسيط للواحدي، ٤٦٠/١٣ (الإسراء، ٨٥/١٧)؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٢٦/٢.

٢ في الآية السابقة.

٣ م ط س: كان

٤ الكلام بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٦/٢.

٥ بمعناه في معالم التنزيل للبغوي، ١٦٢/٥؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٦/٢.

لَما تقرَّر إقرار ولا طلاق ولا عتاق ولم يُعلم صِدق ولا كذِب. قال القرطبيّ: هذا في تدارُك التبرّك والتخلّص عن الإثم، وأمّا الاستثناء المغيِّر للحُكم فلا يكون إلّا متّصلًا.[١] ويجوز أن يكون المعنى: واذكر ربّك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيتَ الاستثناء مبالغة في الحثّ عليه، أو اذكر ربّك وعقابَه إذا تركتَ بعض ما أمرك به ليبعثك ذلك على التدارُك، أو اذكره إذا اعتراك النسيان ليُذكِّرك المنسيَّ. وقد حُمل على أداء الصلاة المَنْسيّة عند ذِكرها.[٢]

﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى﴾ أي: يوفِّقني ﴿لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا﴾ أي: لشيء أقربَ وأظهرَ مِن نبأ أصحاب الكهف مِن الآيات والدلائل الدالّة على نُبوّتي. ﴿رَشَدًا﴾ إرشادًا للناس ودلالة على ذلك، وقد فعل عزّ وعلا ذلك، حيث آتاه مِن البيِّنات ما هو أعظمُ مِن ذلك وأبينُ، كقصص الأنبياء المتباعدِ أيّامُهم والحوادثِ النازلة في الأعصار المستقبلة إلى قيام الساعة، أو لأقربَ رشدًا وأدنى خيرًا مِن المنسيّ.

﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ﴾ أحياءً مضروبًا على آذانهم ﴿ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ وهي جملة مستأنَفة مبيِّنة لِما أُجمِل فيما سلف وأشيرَ إلى عزّة مناله. وقيل: إنّه حكاية كلام أهل الكتاب فإنّهم اختلفوا في مدّة لُبثهم كما اختلفوا في عِدّتهم، فقال بعضهم هكذا وبعضهم ثلاثمائة.[٣]

ورُوي عن عليّ رضي الله تعالى عنه أنّه قال: «عند أهل الكتاب أنّهم لبِثوا ثلاثمائة سنة شمسيّة، والله تعالى ذكَر السنة القمريّة، والتفاوت بينهما في كلّ مائة سنة ثلاث سنين فيكون ثلاثمائة وتسعَ سنين».[٤] و﴿سنينَ﴾ عطف بيان لـ﴿ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ﴾. وقيل: بدل.[٥] وقرئ على الإضافة[٦] وضعًا للجمع موضعَ المفرد،

---

١ انظر: تفسير القرطبي، ١٠/٣٨٦.

٢ هذه الوجوه جميعها في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٢٦.

٣ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٣٦. وبعضه عن قتادة في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٢٦.

٤ معالم التنزيل للبغوي، ٥/١٦٥.

٥ الوجه في التبيان للعكبري، ٢/٨٤٤؛ وهو في اللباب لابن عادل، ١٢/٤٦٣.

٦ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٠.

وممّا يُحسِّنه ههنا أنّ علامة الجمع فيه جبرٌ لِما حُذف في الواحد، وأنّ الأصل في العدد إضافته إلى الجمع.

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾ أي: بالزمان الذي لبثوا فيه. ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما غاب فيهما وخفيَ مِن أحوال أهلهما، و"اللام" / للاختصاص العِلمي دون [٤١٨و] التكويني، فإنّه غير مختصّ بالغيب. ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ دُلّ بصيغة التعجّب على أنّ شأن عِلمه سبحانه بالمبصَرات والمسموعات خارج عمّا عليه إدراكُ المدرِكين، لا يحجُبه شيء ولا يحُول دونه حائل، ولا يتفاوت بالنسبة إليه اللطيف والكثيف والصغير والكبير والخفيّ والجليّ. و"الهاء" ضمير الجلالة، ومحلُّه الرفع على الفاعليّة، و"الباء" مَزيدة عند سيبويهِ، وكان أصله "أبصَرَ"، أي: صار ذا بَصَر، ثمّ نُقل إلى صيغة الأمر للإنشاء، فبرز الضمير لعدم لياقة الصيغة له، أو لزيادة "الباء" كما في "كفى به"؛ والنصبُ على المفعوليّة[1] عند الأخفش، والفاعلُ ضمير المأمورِ وهو "كلّ أحد"، و"الباء" مَزيدةٌ إن كانت "الهمزة" للتعدية ومعدِّيةٌ إن كانت للصيرورة. ولعلّ تقديمَ أمر إبصاره تعالى لِما أنّ الذي نحن بصدده مِن قبيل المبصَرات.

﴿مَا لَهُم﴾ لأهل السماواتِ والأرض ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ تعالى ﴿مِن وَلِىٍّ﴾ يتولّى أمورهم وينصُرهم استقلالًا ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ﴾ في قضائه، أو في عِلم الغيب ﴿أَحَدًا﴾ منهم، ولا يجعل له فيه مدخلًا، وهو كما ترى أبلَغ في نفي الشريك مِن أن يقال: "مِن وليّ ولا شريك"، وقرئ على صيغة نهي الحاضر[2] على أنّ الخِطاب لكلّ أحد.

ولمّا دلّ انتظام القرآن الكريم لقصّة أصحاب الكهف مِن حيث إنّها بالنسبة إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مِن المغيَّبات على أنّه وحيٌ معجِز، أمَره عليه السلام

---

١ السياق: ومحلُّه الرفع... والنصبُ...

٢ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٠.

بالمداومة على دراسته فقال: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ ولا تسمَعْ لقولهم: ائتِ بقرآن غير هذا أو بدِّلْه.

﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ لا قادرَ على تبديله وتغييره غيرُه ﴿وَلَن تَجِدَ﴾ أبدَ الدهر وإن بالغتَ في الطلب ﴿مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ مَلجأ تعدل إليه عند إلمام مُلِمّة.

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ احبِسْها وثبِّتها مصاحِبةً ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ أي: دائبين على الدعاء في جميع الأوقات. وقيل: في طرفَي النهار.[1] وقرئ: "بِالغُدْوَةِ"[2] على أنّ إدخال "اللام" عليها وهي علَم في الأغلب على تأويل التنكير، والمرادُ بهم فقراء المؤمنين مثل صُهيبٍ وعمّارٍ وخبّابٍ ونحوهم، وقيل: أصحاب الصُّفَّة وكانوا نحو سبعمائة رجل.[3]

[٤١٨ظ] قيل: إنّه قال قوم / مِن رؤساء الكفَرة لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: نحِّ هؤلاء الموالِيَ الذين كأنّ ريحهم ريح الضأن حتّى نجالسَك، كما قال قوم نوحٍ: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء، ١١١/٢٦] فنزلت.[4] والتعبير عنهم بالموصول لتعليل الأمر بما في حيِّز الصلة مِن الخَصلة الداعية إلى إدامة الصحبة. ﴿يُرِيدُونَ﴾ بدعائهم ذلك ﴿وَجْهَهُۥ﴾ حال مِن المستكِنّ في ﴿يَدْعُونَ﴾، أي: مريدين لرضاه تعالى وطاعته.

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أي: لا يجاوِزْهم نظرك إلى غيرهم، مِن "عَدَاه"، أي: جاوزه، واستعمالُه بـ"عن" لتضمينه معنى النُبوّ، أو لا تصرِفْ عيناك النظرَ عنهم إلى غيرهم، مِن "عدَوتُه عن الأمر"، أي: صرفتُه عنه على أنّ المفعول

---

١ كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٣٧/٢.

٢ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٥٨/٢، ٣١٠.

٣ مرويّ عن قتادة في معالم التنزيل للبغوي، ١١٦٦/٥؛ واللباب لابن عادل، ٤٦٨/١٢.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٥٢٧/٢.

محذوف لظهوره. وقرئ: "وَلَا تُعْدِ عَيْنَيكَ"،[١] "ولا تُعَدِّ عَيْنَيكَ"[٢] مِن الإعداء والتعدية. والمراد نُهيه عليه السلام عن الازدراء بهم لرثاثة زِيّهم طموحًا إلى زِيّ الأغنياء.

﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: تطلب مجالسة الأشراف والأغنياء وأصحابِ الدنيا، وهي حال مِن "الكاف" على الوجه الأوّل مِن القراءة المشهورة ومِن الفاعل على الوجه الثاني منها، وضميرُ ﴿تُرِيدُ﴾ لـ"العينين"، وإسنادُ الإرادة إليه مجاز، وتوحيدُه للتلازم، كما في قوله:

لِمَنْ زُحْلُوفَةٌ[٣] زَلٌّ[٤] بِهَا العَيْنَانِ تَنْهَلُّ[٥]

ومِن المستكِنّ في الفعل على القراءتين الأخيرتين.

﴿وَلَا تُطِعْ﴾ في تنحية الفقراء عن مجلسك ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾ أي: جعلناه غافلًا لبطلان استعداده للذِّكر بالمرّة، أو وجدناه غافلًا، كقولك: "أجبَنتُه وأبخَلتُه" إذا وجدتَه كذلك، أو هو مِن "أَغفَل إبِلَه"، أي: لم نَسِمه بالذِّكر. ﴿عَن ذِكْرِنَا﴾ كأولئك الذين يدعونك إلى طَرْد الفقراء عن مجلسك فإنّهم غافلون عن ذِكرنا، على خلاف ما عليه المؤمنون مِن الدعاء في مجامع الأوقات. وفيه تنبيه على أنّ الباعث له إلى ذلك الدعاءِ غفلةُ قلبه عن جناب الله سبحانه وجهته، وانهماكُه في الحسّيّات حتّى خفيَ عليه أنّ الشرف بحِلْية النفس لا بزينة الجسد. وقرئ: "أَغْفَلَنَا قَلْبُهُ"[٦] على إسناد الفعل إلى القلب، أي: حسِبَنا غافلين عن ذِكرنا إيّاه بالمؤاخذة، مِن "أغفلتُه" إذا وجدتَه غافلًا.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٧؛ المغني في القراءات للنُّوْزاوازي، ص ١١٥٩.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر والأعرج والحسن. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٢؛ المغني في القراءات للنُّوْزاوازي، ص ١١٥٩.

٣ هذا اللفظ يُروى "زُحْلُوفة" و"زُحْلُوقة". لسان العرب لابن منظور، «زلل».

٤ كذا ضبطها المؤلِّف. وهي "زُلُّ"، أي: زَلَقٌ. لسان العرب لابن منظور، «زلل».

٥ البيت لامرئ القيس في ملحق ديوانه ٤٧٣؛ وأمالي ابن الشجري، ١/١٨٣؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٧/٤٧٤؛ واللباب لابن عادل، ١٢/٤٧٠

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن عمرو بن فايد وابن أبي عبلة. المغني في القراءات للنُّوْزاوازي، ص ١١٥٩.

﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ ضياعًا وهلاكًا، أو متقدِّمًا للحقّ والصواب نابذًا له وراء ظهره، مِن قولهم: "فرَس فُرُط"، أي: متقدِّم للخيل، أو هو بمعنى
[٤١٩و] / الإفراط والتفريط، فإنّ الغفلة عن ذِكره سبحانه تؤدّي إلى اتّباع الهوى المؤدّي إلى التجاوُز والتباعُد عن الحقّ والصواب. والتعبير عنهم بالموصول للإيذان بعِلّيّة ما في حيِّز الصلة للنهي عن الإطاعة.

﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ٢٩﴾

﴿وَقُلِ﴾ لأولئك الغافلين المتّبعين هواهم: ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ أي: ما أوحيَ إليَّ الحقُّ لا غيرُ كائنًا مِن ربّكم، أو الحقُّ المعهود مِن جهة ربّكم لا مِن جهتي حتّى يُتصوَّر فيه التبديل أو يُمكنَ التردّد في اتّباعه.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ إمّا مِن تمام القول المأمور به، و"الفاء" لترتيب ما بعدها على ما قبلها بطريق التهديد لا لتفريعه عليه، كما في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [ص، ٣٩/٣٨]، وقولِه تعالى: ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ [البقرة، ١٤٧/٢]، أي: عَقيبَ تحقّق أنّ ما أوحيَ إليَّ حقّ لا ريبَ فيه، وأنّ ذلك الحقّ مِن جهة ربّكم، مَن شاء أن يؤمِن به فليُؤمن كسائر المؤمنين ولا يتعلّل بما لا يكاد يصلُح للتعلّل، ومَن شاء أن يكفُر به فليفعلْ، وفيه مِن التهديد وإظهار الاستغناء عن متابعتهم وعدم المبالاة بهم وبإيمانهم وجودًا وعدمًا ما لا يخفى.

وإمّا تهديد[1] مِن جهة الله تعالى، و"الفاء" لترتيب ما بعدها مِن التهديد على الأمر لا على مضمون المأمور به، والمعنى: قلْ لهم ذلك، وبعد ذلك مَن شاء أن يؤمن به أو أن يصدِّقك فيه فليُؤمن ومَن شاء أن يكفُر به أو أن يكذِّبَك فيه فليفعلْ.

---

[1] السياق: إمّا مِن تمام... وإمّا تهديد...

فقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾ وعيد شديد وتأكيد للتهديد وتعليل لِما يفيده مِن الزجر عن الكفر أو لِما يُفهَم مِن ظاهر التخيير مِن عدم المبالاة بكفرهم وقلّة الاهتمام بزَجْرهم عنه، فإنّ إعداد جزائه مِن دواعي الإملاء والإمهال. وعلى الوجه الأوّل هو تعليل للأمر بما ذُكر مِن التخيير التهديدي، أي: قلْ لهم ذلك، إنّا أعتدنا ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: هيّأنا للكافرين بالحقّ بعد ما جاء مِن الله سبحانه. والتعبير عنهم بـ"الظالمين" للتنبيه على أنّ مشيئة الكفر واختيارَه تجاوزٌ عن الحدّ ووضعٌ للشيء في غير موضعه.

﴿نَارًا﴾ عظيمة عجيبة ﴿أَحَاطَ بِهِمْ﴾ أي: يُحيط بهم، وإيثار صيغة الماضي للدلالة على التحقّق. ﴿سُرَادِقُهَا﴾ أي: فُسطاطها، شُبِّه به ما يحيط بهم مِن النار. وقيل: السُّرادِق: الحجرةُ التي تكون حول الفُسطاط. وقيل: سُرادِقها: دُخانها. وقيل: حائط مِن نار.[1]

﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا﴾ مِن العطش ﴿يُغَاثُوا بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ كالحديد المُذاب. وقيل: كدُرْديّ الزيت،[2] وهو على طريقة قوله:

فأُعتِبوا بالصَّيْلَمِ[3]

/ ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ إذا قُدِّم ليُشرَب انشوى الوجه لحرارته. عن النبيّ صلّى [٤١٩ظ] الله عليه وسلّم: «هو كعَكَر الزيت فإذا قرُب إليه سقطت فَرْوةُ وجهه».[4]

﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ ذلك ﴿وَسَآءَتْ﴾ النار ﴿مُرْتَفَقًا﴾ متّكأ، وأصل الارتفاق نصب المِرْفق تحت الخدّ، وأنّى ذلك في النار؟ وإنّما هو لمقابلة قوله تعالى: ﴿حَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾.[5]

---

١ الأقوال الثلاثة في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٢٨.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٢٨.

٣ وفي هامش م: صدره:
غضِبتْ تميمٌ أن تُقتَّلَ عامرٌ
يومَ النِّسار فأُعتِبوا بالصَّيْلَمِ
والبيت لِبِشر بن أبي خازم في ديوانه، ص ١٨٠. وهو مِن مُجمهرته في جمهرة أشعار العرب للقرشي، ١/٥١٩؛ وله في الصحاح للجوهري، «عتب»، «صلم»، وفيه: الصيلم: الداهية، ويُسمّى السيف صَيْلمًا، أي: أعتبناهم بالسيف، أي: أرضيناهم بالقتل. وأراد المؤلِّف ما فيه مِن التهكّم. والبيت بلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٢٨.

٤ مسند أحمد، ١٨/٢١٠ (١١٦٧٢)؛ سنن الترمذي، ٤/٥٣٧ (٢٥٨١)؛ جامع البيان للطبري، ١٥/٢٥٠؛ معالم التنزيل للبغوي، ٥/١٦٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٢٨-٥٢٩.

٥ الكهف، ١٨/٣١.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ٣٠﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في محلّ التعليل للحثّ على الإيمان المُنفهِم مِن التخيير، كأنّه قيل: وللذين آمنوا، ولعلّ تغييرَ سَبْكه للإيذان بكمال تنافي مآلَي الفريقين، أي: إنّ الذين آمنوا بالحقّ الذي أوحيَ إليك، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ حسبما بُيّن في تضاعيفه.

﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ الأولى هي الثانية مع ما في حيّزها، والراجع محذوف، أي: مَن أحسنَ منهم عملًا، أو مستغنًى عنه، كما في قولك: "نِعْمَ الرجلُ زيدٌ" أو واقعٌ موقعَه الظاهر، فإنّ مَن أحسنَ عملًا في الحقيقة هو الذي آمَن وعمِل الصالحاتِ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ٣١﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنعوتون بالنعوت الجليلة ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ[1] ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ استئناف لبيان الأجر، أو هو الخبر وما بينهما اعتراض، أو هو خبر بعد خبر.

﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ﴾ ﴿مِن﴾ الأولى ابتدائيّة والثانية بيانيّة صفة لـ﴿أَسَاوِرَ﴾، والتنكير للتفخيم، وهو جمع "أَسورة"، أو "أسْوار" جَمْع "سِوار". ﴿وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا﴾ خُصّت الخُضرة بثيابهم لأنّها أحسن الألوان وأكثرها طراوة، ﴿مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ﴾ أي: ممّا رقّ مِن الدِّيباج وما غلُظ. جُمع بين النوعين للدلالة على أنّ فيها ما تشتهي الأنفس وتلَذّ الأعين. ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ على السُّرُر على ما هو شأن المتنعِّمين. ﴿نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ﴾ ذلك ﴿وَحَسُنَتۡ﴾ أي: الأرائك ﴿مُرۡتَفَقٗا﴾ أي: متّكأ.

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢﴾

---

[1] م ط س: تحتها.

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم﴾ أي: للفريقين الكافر والمؤمن ﴿مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ﴾ مفعولان لـ﴿ٱضۡرِبۡ﴾ أوّلُهما ثانيهما؛ لأنّه المحتاج إلى التفصيل والبيان، أي: اضرب للكافرين والمؤمنين، لا مِن حيث أحوالُهما المستفادة ممّا ذُكر آنفًا مِن أنّ للأوّلين في الآخرة كذا وللآخِرين كذا؛ بل مِن حيث عصيانُ الأوّلين مع تقلّبهم في نِعَم الله تعالى وطاعة الآخِرين مع مكابدتهم مشاقَّ الفقر، مثلًا[1] حالَ[2] رجلين مقدَّرَين أو محقَّقين هما أخوان مِن بني إسرائيلَ أو شريكان: كافر اسمه قُطروسُ، ومؤمنٌ اسمه يَهوذا، / اقتسما ثمانية آلاف دينار، فاشترى الكافر [٤٢٠و] بنصيبه ضِياعًا وعَقارًا، وصرَف المؤمن نصيبه إلى وجوه المبارّ، فآل أمرهما إلى ما حكاه الله تعالى.

وقيل: هما أخوان مِن بني مخزوم كافر هو الأسود بن عبد الأشدّ، ومسلِم هو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأشدّ[3] زوجُ أمّ سلمة رضي الله عنها أوّلًا.

﴿جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا﴾ وهو الكافر ﴿جَنَّتَيۡنِ﴾ بستانين ﴿مِنۡ أَعۡنَٰبٖ﴾ مِن كروم متنوّعة، والجملة بتمامها بيان للتمثيل أو صفة لـ﴿رَجُلَيۡنِ﴾. ﴿وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ﴾ أي: جعلنا النخل محيطة بهما مؤزَّرًا بها كرومُهما، يقال: "حفّه القوم" إذا أطافوا به، و"حففتُه بهم" جعلتُهم حافّين حوله، فيزيده "الباء" مفعولًا آخرَ، كقولك: غشّيتُه به. ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا﴾ وسطهما ﴿زَرۡعٗا﴾ ليكون كلّ منهما جامعًا للأقوات والفواكه متواصل العِمارة على الهيئة الرائقة والوضع الأنيق.

﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ٣٣﴾

﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا﴾ ثمرَها وبلغت مبلغًا صالحًا للأكل. وقرئ

---

١ وفي هامش م: مفعول ثانٍ.

٢ وفي هامش م: مفعول أوّلُ.

٣ هو عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي المخزومي، أبو سلمة (ت. ٣هـ/٦٢٦م). أمّه بَرّة بنت عبد المطّلب بن هاشم، هو أخو النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مِن الرضاعة وابن عمّته بَرّة، وهو الصحابي السيّد الكبير. أحد السابقين الأوّلين هاجر إلى الحبشة، ثمّ إلى المدينة. وشهد بدرًا ومات بعدها بأشهر وله أولاد صحابة كعمر وزينب وغيرهما. وتزوّج النبيّ صلّى الله عليه وسلّم زوجه أمّ سلمة رضي الله عنها التي روت القول عند المصيبة. انظر: الاستيعاب، ٤/١١٦٨٢؛ وسير أعلام النبلاء للذهبي، ١/١٥٠.

بسكون "الكاف"،[١] وقرئ: "كُلُّ الجَنَّتَيْنِ آتَى أُكُلَهُ".[٢] ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ﴾ لم تنقُص مِن أُكُلها ﴿شَيْـًٔا﴾ كما يُعهَد ذلك في سائر البساتين، فإنّ الثمار غالبًا تكثُر في عام وتقِلّ في آخرَ، وكذا بعض الأشجار يأتي بالثمر في بعض الأعوام دون بعض.

﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا﴾ فيما بين كلّ مِن الجنّتين ﴿نَهَرًا﴾ على حِدَة ليدوم شربهما ويزيد بهاؤهما، وقرئ بالتخفيف.[٣] ولعلّ تأخيرَ ذِكر تفجير النهر عن ذكر إيتاء الأكل مع أنّ الترتيب الخارجي على العكس للإيذان باستقلال كلّ مِن إيتاء الأكل وتفجير النهر في تكميل محاسن الجنّتين، كما في قصّة البقرة ونحوها.[٤] ولو عُكس لانفهم أنّ المجموع خَصلة واحدة بعضُها مترتّب على بعض، فإنّ إيتاء الأكل متفرّع على السَّقْي عادة. وفيه إيماء إلى أنّ إيتاء الأُكُل لا يتوقّف على السَّقْي، كقوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور، ٣٥/٢٤].

﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَكَانَ لَهُۥ﴾ لصاحب الجنّتين ﴿ثَمَرٌ﴾ أنواع مِن المال غيرُ الجنّتين، مِن "ثمَّر مالَه" إذا كثّره، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: هو جميع المال مِن الذهب والفضّة والحيوان وغير ذلك.[٥] وقال مجاهدٌ: هو الذهب والفضّة خاصّة.[٦]

[٤٢٠ظ] ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ المؤمن ﴿وَهُوَ﴾ / أي: القائل ﴿يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ أي: صاحبَه المؤمن، وإن جاز العكس، أي: يراجعه في الكلام مِن "حار" إذا رجَع، ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ حشَمًا وأعوانًا، أو أولادًا ذُكورًا؛ لأنّهم الذين ينفِرون معه.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾﴾

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ التي شُرحت أحوالها وعَدَدها وصفاتها وهيئاتها. وتوحيدُها

---

١ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو. **النشر** لابن الجزري، ٢١٦/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. **المغني في القراءات** للنّوْزاوازي، ص ١١٦١.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. **المغني في القراءات** للنّوْزاوازي، ص ١١٦١.

٤ ذكر ذلك في تفسير الآية الثالثة والسبعين مِن سورة البقرة في قصّة البقرة، وذكره في تفسير الآية الحادية والخمسين بعد المائة مِن تلك السورة.

٥ بمعناه عن ابن عبّاس في **جامع البيان** للطبري، ٢٦٠/٢.

٦ **جامع البيان** للطبري، ٢٥٩/٢؛ **معالم التنزيل** للبغوي، ١٧١/٥؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٥٣٠/٢.

إمّا لعدم تعلّقِ الغرَض بتعدّدها، وإمّا لاتّصال إحداهما بالأخرى، وإمّا لأنّ الدخول يكون في واحدة فواحدة، ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ ضارّ لها بعُجبه وكفره.

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن ذِكر دخول جنّته حالَ ظلمه لنفسه، كأنّه قيل: فماذا قال إذ ذاك؟ فقيل قال: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ﴾ الجنّةُ، أي: تفنى ﴿أَبَدًا﴾ لطول أمده وتمادي غفلتِه واغتراره بمُهلته. ولعلّه إنّما قاله بمقابلة موعظة صاحبه وتذكيره بفناء جنّتيه ونهيه عن الاغترار بهما وأمْرِه بتحصيل الباقيات الصالحات.

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ كائنة فيما سيأتي ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ﴾ بالبعث عند قيامها كما تقوله ﴿إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ﴾ يومئذ ﴿خَيْرًا مِّنْهَا﴾ أي: مِن هذه الجنّة، وقرئ: "مِنْهُمَا"،[1] أي: مِن الجنّتين ﴿مُنقَلَبًا﴾ مَرجِعًا وعاقبة. ومدار هذا الطمع واليمينِ الفاجرة اعتقادُ أنّه تعالى إنّما أولاه ما أولاه في الدنيا لاستحقاقه الذاتي وكرامته عليه سبحانه، ولم يدرِ أنّ ذلك استدراج.

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ﴾ استئناف كما سبق ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ جملة حاليّة كما مرّ، فائدتُها التنبيه مِن أوّل الأمر على أنّ ما يتلوه كلام معتنًى بشأنه مَسُوق للمحاورة: ﴿أَكَفَرْتَ﴾ حيث قلت: ما أظنّ الساعة قائمة ﴿بِٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾ أي: في ضمن خَلْق أصلك ﴿مِن تُرَابٍ﴾ فإنّ خَلْق آدمَ عليه السلام منه متضمِّن لخَلْقه منه، لِما أنّ خَلْق كلّ فرد مِن أفراد البشر له حظّ مِن خَلْقه عليه السلام، إذ لم تكن فطرته الشريفة مقصورة على نفسه؛ بل كانت أُنموذجًا منطويًا على فطرة سائر أفراد الجنس انطواء إجماليًا مستتبِعًا لجريان آثارها على الكلّ، فكان خَلْقه عليه السلام

---

١ قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٠-٣١١.

مِن التراب خَلْقًا للكلّ منه. وقيل: خَلَقك منه؛ لأنّه أصل مادّتك إذ به يحصُل الغذاء الذي منه تحصُل النطفة، فتدبّر.

﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ هي مادّتك القريبة، فالمخلوق واحد والمبدأ متعدِّد، ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ أي: عَدّلك وكمّلك إنسانًا ذكرًا أو صيّرك رجلًا. والتعبير عنه تعالى بالموصول للإشعار بعِلّيّة ما في حيّز الصلة لإنكار الكفر والتلويح بدليل البعث الذي نطَق به قوله عزّ مِن قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾... إلى آخره [الحج، ٥/٢٢].

﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾

[٤٢١و] ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ أصله "لَكِنْ أَنَا" وقد قرئ كذلك،[١] / فحُذفت الهمزة فتلاقت النونان فكان الإدغامُ، و﴿هُوَ﴾ ضمير الشأن، وهو مبتدأ خبرُه ﴿ٱللَّهُ رَبِّى﴾ وتلك الجملة خبر "أنا" والعائدُ منها إليه الضمير. وقرئ بإثبات ألفِ "أنا" في الوصل والوقف جميعًا،[٢] وفي الوقف خاصّة،[٣] وقرئ: "لَكِنَّهْ"[٤] بالهاء، و"لَكِنْ"[٥] بطرح "أنا"، و"لَكِنْ أَنَا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبِّيْ".[٦] ومدارُ الاستدراك قوله تعالى: ﴿أَكَفَرْتَ﴾،[٧] كأنّه قال: أنت كافر لكنّي مؤمن موحِّد.

﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ فيه إيذان بأنّ كفره كان بطريق الإشراك.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾

﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ﴾ أي: هلّا قلتَ عندما دخلتَها. وتقديم الظرف

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ والحسن. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٣.

٢ قرأ بها ابن عامر وأبو جعفر ورُويس. النشر لابن الجزري، ٣١١/٢.

٣ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وحمزة وعاصم وخلف ورَوح. النشر لابن الجزري، ٣١١/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن خالد وهارون وعديّ كلُّهم عن أبي عمرو. المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ١١٦٣.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٣.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. الكشّاف للزمخشري، ٥٣١/٢.

٧ في الآية السابقة.

على المحضَّض عليه للإيذان بتحتّم القول في آن الدخول مِن غير ريث، لا للقصر.

﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: الأمرُ ما شاء الله، أو ما شاء الله كائن على أنّ ﴿مَا﴾ موصولة مرفوعة المَحلّ، أو أيّ شيء شاء الله كان على أنّها شرطيّة منصوبة والجواب محذوف، والمراد تحضيضُه على الاعتراف بأنّها وما فيها بمشيئة الله تعالى إن شاء أبقاها وإن شاء أفناها. ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: هلّا قلت ذلك اعترافًا بعجزك وبأنّ ما تيسَّر لك مِن عِمارتها وتدبير أمرها إنّما هو بمعونته تعالى وإقداره. عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن رأى شيئًا فأعجبه فقال: ما شاء الله لا قوّة إلّا بالله لم يضُرّه».

﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ ﴿أَنَا۠﴾ إمّا مؤكِّد لياء المتكلِّم أو ضمير فَصْل بين مفعولي الرؤية إن جُعلت عِلْميّة و﴿أَقَلَّ﴾ ثانيهما، وحال إن جُعلت بصَريّة فيكون ﴿أَنَا۠﴾ حينئذ تأكيدًا لا غيرُ؛ لأنّ شرط كونه ضميرَ فَصْل توسُّطه بين المبتدأ والخبر، أو ما أصله المبتدأ والخبر، وقرئ: "أَقَلُّ"[1] بالرفع خبرًا لـ﴿أَنَا۠﴾ والجملة مفعول ثانٍ للرؤية أو حال. وفي قوله تعالى: ﴿وَوَلَدًا﴾ نُصرةٌ لمَن فسَّر النفَر بالولد.[2]

﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۝٤٠﴾

﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ هو جواب الشرط، والمعنى إن ترنِ أفقرَ منك فأنا أتوقَّع مِن صنع الله سبحانه / أن يقلِبَ ما بي وبك مِن الفقر والغنى [٤٢١ظ] فيرزُقني لإيماني جنّة خيرًا مِن جنّتك ويسلُبَك لكفرك نعمتَه ويُخرِّب جنّتك ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا﴾ هو مصدر بمعنى الحِساب كـ"البُطلان" و"الغفران"، أي: مقدارًا قدّره الله تعالى وحسَبه، وهو الحكم بتخريبها. وقيل: عذابَ حُسبان

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٨.

٢ الكهف، ٣٤/١٨.

وهو حساب ما كسَبت يداه.[١] وقيل: مَراميَ جمعُ "حُسْبانة": وهي الصواعق.[٢] ومساعدة النظم الكريم فيما سيأتي للأوّلَين أكثرُ.

﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ مصدر أريدَ به المفعول مبالغةً، أي: أرضًا ملساء يُزْلَق عليها لاستئصال ما عليها مِن البناء والشجر والنبات.

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾

﴿أَوْ يُصْبِحَ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿فَتُصْبِحَ﴾،[٣] وعلى الوجه الثالث على ﴿يُرْسِلَ﴾[٤] ﴿مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ أي: غائرًا في الأرض أُطلِق عليه المصدر مبالغة ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ﴾ أبدًا ﴿لَهُۥ﴾ أي: للماء الغائر ﴿طَلَبًا﴾ فضلًا عن وجدانه ورَدِّه.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ أُهلِك أمواله المعهودةُ مِن جنّتيه وما فيهما، وأصلُه مِن إحاطة العدوّ، وهو عطفٌ على مقدَّر، كأنّه قيل: فوقع بعض ما توقَّع مِن المحذور وأُهلِك أمواله، وإنّما حُذف لدلالة السباق والسياق عليه، كما في المعطوف عليه بالفاء الفصيحة.

﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ ظهرًا لبطن وهو كناية عن الندم، كأنّه قيل: فأصبح يندم ﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ أي: في عِمارتها مِن المال، ولعلّ تخصيصَ الندم به دون ما هلَك الآن مِن الجنّة لِما أنّه إنّما يكون على الأفعال الاختياريّة، ولأنّ ما أنفق في عِمارتها كان ممّا يمكن صيانته عن طوارق الحدَثان، وقد صرَفه إلى مصالحها رجاءَ أن يتمتّع بها أكثرَ ممّا يتمتّع به، وكان يرى أنّه لا ينالها أيدي الردى، ولذلك قال: ما أظنّ أن تبيد هذه أبدًا، فلمّا ظهَر له أنّها ممّا يعتريه الهلاك

---

١ قول الزجّاج في **معاني القرآن وإعرابه**، ٣/٢٨٩؛ وعزاه إليه الزمخشري في **الكشّاف**، ٢/٥٣١.

٢ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٥٣١.

٣ في الآية السابقة.

٤ في الآية السابقة.

ندِم على ما صنَع بناء على الزعم الفاسد مِن إنفاق ما يمكن ادّخاره في مثل هذا الشيء السريع الزوالِ.

﴿وَهِيَ﴾ أي: الجنّة مِن الأعناب المحفوفة بنخل ﴿خَاوِيَةٌ﴾ ساقطة ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي: دعائمها المصنوعة للكروم لسقوطها قبل سقوطها. وتخصيص حالها بالذِّكر دون النخل والزرع إمّا لأنّها العُمدة وهما مِن متمِّماتها، وإمّا لأنّ ذِكر هلاكِها مُغنٍ عن ذِكر هلاك الباقي؛ لأنّها حيث هلكت وهي مُشيَّدة بعروشها فهلاك ما عداها بالطريق الأَولى، وإمّا لأنّ الإنفاق في عمارتها أكثر. وقيل: / أرسل الله تعالى عليها نارًا فأحرقتها وغار ماؤها.[1] [٤٢٢و]

﴿وَيَقُولُ﴾ عطفٌ على ﴿يُقَلِّبُ﴾ أو حال مِن ضميره، أي: وهو يقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾، كأنّه تذكّر موعظة أخيه وعلِم أنّه إنّما أُتيَ مِن قِبل شِركه فتمنّى لو لم يكن مُشرِكًا فلم يُصبه ما أصابه. قيل: ويحتمل أن يكون ذلك توبة مِن الشِّرك وندمًا على ما فرَط منه.[2]

﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرٗا ٤٣﴾

﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ﴾ وقرئ بالياء التحتانيّة[3] ﴿فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ﴾ يقدِرون على نصره بدفع الإهلاك، أو على ردّ المهلَك أو الإتيان بمثله، وجمعُ الضمير باعتبار المعنى، كما في قوله عزّ وعلا: ﴿يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ﴾ [آل عمران، ١٣/٣]. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فإنّه القادر على ذلك وحدَه، ﴿وَمَا كَانَ﴾ في نفسه ﴿مُنتَصِرٗا﴾ ممتنعًا بقوّته عن انتقامه سبحانه.

﴿هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ٤٤﴾

﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك المقام وفي تلك الحال ﴿ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: النُصرة له وحدَه لا يقدِر عليها أحد، فهو تقرير لِما قبله، أو ينصُر فيها أولياءه المؤمنين

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٢/٢.

٢ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٢/٢.

٣ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣١١/٢.

على الكفَرة كما نصَر بما فعل بالكافر أخاه المؤمن، ويعضُده قوله تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي: لأوليائه، وقرئ: "الوِلَايَةُ"[1] بكسر "الواو" ومعناها المُلك والسلطان، أي: هنالك السلطان له عزّ وجلّ لا يُغلَب ولا يُمتَنع منه، أو لا يُعبد غيره، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا[2] رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت، ٦٥/٢٩]، فيكون تنبيهًا على أنّ قوله: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ﴾... إلخ،[3] كان عن اضطرار وجزَع عمّا دهاه على أسلوب قوله تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس، ٩١/١٠].

وقيل: ﴿هُنَالِكَ﴾ إشارة إلى الآخرة كقوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر، ١٦/٤٠].

وقرئ برفع ﴿ٱلْحَقِّ﴾[4] على أنّه صفة لـ﴿ٱلْوَلَيَةُ﴾ وبنصبه على أنّه مصدر مؤكِّد، وقرئ: "عُقُبًا"[5] بضمّ "القاف"، و"عُقْبَى"[6] كـ"رُجعى"، والكلُّ بمعنى العاقبة.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: واذكر لهم ما يُشبهها في زَهْرتها ونَضارتها وسرعة زوالها لئلّا يطمئنّوا بها ولا يعكُفوا عليها ولا يَضرِبوا عن الآخرة صفحًا بالمرّة، أو بيِّنْ لهم صفتها العجيبة التي هي في الغرابة كالمَثل. ﴿كَمَآءٍ﴾ استئناف لبيان المَثل، أي: هي كماء ﴿أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾. ويجوز كونه مفعولًا ثانيًا لـ﴿ٱضْرِبْ﴾ على أنّه بمعنى "صيِّر".

[٤٢٢ظ] ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ﴾ / اشتبك بسببه ﴿نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ فالتفّ وخالط بعضه بعضًا مِن كثرته وتكاثفه، أو نجَع الماء في النبات حتّى روِيَ ورفّ،[7] فمقتضى الظاهر حينئذ

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٧٧/٢.

٢ م: وإذا.

٣ الكهف، ٤٢/١٨.

٤ قرأ بها أبو عمرو والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣١١/٢.

٥ قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢١٦/٢.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عُمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٩.

٧ رفّ النبات: اهتزّ وتنعّم، ويقال ذلك للشيء إذا كثُر ماؤه مِن النِّعمة والغضاضة حتّى كاد يهتزّ. لسان العرب لابن منظور، «رفف».

"فاختلط بنبات الأرض". وإيثار ما عليه النظم الكريم عليه للمبالغة في الكثرة فإنّ كلًّا مِن المختلِطَين موصوف بصفة صاحبه.

﴿فَأَصْبَحَ﴾ ذلك النبات الملتفّ إثرَ بهجتها ورفيفها ﴿هَشِيمًا﴾ مهشومًا مكسورًا ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ تفرّقه، وقرئ: "تُذْرِيهِ"[1] مِن "أذراه وتذروه الريح". وليس المشبَّه به نفسَ الماء؛ بل هو الهيئة المنتزَعة مِن الجملة، وهي حال النبات المُنبَت بالماء، يكون أخضرَ وارفًا ثمّ هشيمًا تُطيِّره الرياح كأن لم يَغْنَ بالأمس.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ مِن الأشياء التي مِن جملتها الإنشاء والإفناء ﴿مُّقْتَدِرًا﴾ قادرًا على الكمال.

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بيان لشأن ما كانوا يفتخِرون به مِن محسِّنات الحياة الدنيا، كما قال الأخ الكافر: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾[2] إثرَ بيان شأن نفسها بما مرّ مِن المَثل.

وتقديم "المال" على "البنين" مع كونهم أعزَّ منه كما في الآية المحكيّة آنفًا وقولِه تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ [الإسراء، ٦/١٧] وغيرِ ذلك مِن الآيات الكريمة لعراقته فيما نِيط به مِن الزِّينة والإمدادِ وغيرِ ذلك وعمومِه بالنسبة إلى الأفراد والأوقات، فإنّه زينة ومُمِدّ لكلّ أحد مِن الآباء والبنين في كلّ وقت وحين. وأمّا البنون فزَيْنهم وإمدادهم إنّما يكون بالنسبة إلى مَن بلَغ مَبلغ الأبوّة، ولأنّ المال مَناط لبقاء النفس والبنين[3] لبقاء النوع، ولأنّ الحاجة إليه أمسُّ مِن الحاجة إليهم، ولأنّه أقدم منهم في الوجود، ولأنّه زينة بدونهم مِن غير عكس، فإنّ مَن له بنونَ بلا مال فهو في ضِيق حال ونكال.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وابن مسعود والضحّاك وعُبيد بن عُمير وابن أبي عبلة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٣؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٩؛

٢ الكهف، ٣٤/١٨.

٣ م ط: البنون [صُحِّح في هامش م ط].

وإفراد الزِّينة مع أنّها مسنَدة إلى الاثنين لِما أنّها مصدر في الأصل أطلق على المفعول مبالغةً كأنّهما نفسُ الزينة، والمعنى أنّ ما يفتخرون به مِن المال والبنين شيء يُتزيّن به في الحياة الدنيا وقد عُلم شأنُها في سرعة الزوال وقُربِ الاضمحلال، فكيف بما هو مِن أوصافها التي شأنُها أن تزول قبل زوالِها؟

﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ هي أعمال الخير. وقيل: هي الصلوات الخمس.[1] وقيل: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبرُ.[2] وقيل: كلُّ ما أريدَ به وجه الله تعالى.[3] / وعلى كلّ تقدير يدخُل فيها أعمال فقراء المؤمنين الذين [٤٢٣و] يدعون ربّهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهَه دخولًا أوّليًا، أمّا صلاحها فظاهر وأمّا بقاؤها فبقاء عوائدها عند فَناء كلّ ما تطمح إليه النفس مِن حظوظ الدنيا.

﴿خَيْرٌ﴾ أي: ممّا نُعت شأنه مِن المال والبنين. وإخراجُ بقاء تلك الأعمال وصلاحها مُخرَجَ الصفات المفروغ عنها مع أنّ حقّهما أن يكونا مقصودَي الإفادة لاسيّما في مقابلة إثبات الفناء لِما يقابلها مِن المال والبنين على طريقة قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل، ٩٦/١٦] للإيذان بأنّ بقاءها أمر محقَّق لا حاجةَ إلى بيانه؛ بل لفظ ﴿ٱلْبَٰقِيَٰتُ﴾ اسم لها لا وصف، ولذلك لم يُذكَر الموصوف، وإنّما الذي يُحتاج إلى التعرّض له خيريّتُها.

﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: في الآخرة، وهو بيان لِما يظهَر فيه آثار خيريّتها بمنزلة إضافة الزِّينة إلى الحياة الدنيا لا لأفضليّتها فيها[4] مِن المال والبنين مع مشاركة الكلّ في الأصل، إذ لا مشاركةَ لهما في الخيريّة في الآخرة. ﴿ثَوَابًا﴾ عائدةً تعود إلى صاحبها.

---

١ مرويّ عن ابن عبّاس وسعيد بن جُبير وغيرهما في **جامع البيان** للطبري، ١٥/٢٧٤-٢٧٥؛ و**معالم التنزيل** للبغوي، ٥/١٧٥؛ وهو بلا عزو في **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٥٣٣.

٢ مرويّ عن عثمان بن عفّان وابن عبّاس وغيرهما في **جامع البيان** للطبري، ١٥/٢٧٥-٢٧٩؛ و**معالم التنزيل** للبغوي، ٥/١٧٤-١٧٥؛ وهو بلا عزو في **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٥٣٣.

٣ مرويّ بمعناه عن ابن عبّاس وقتادة وغيرهما في **جامع البيان** للطبري، ١٥/٢٨٠-٢٨١؛ و**معالم التنزيل** للبغوي، ٥/١٧٥؛ و**الكشّاف** للزمخشري، ٢/٥٣٣.

٤ ط س - فيها.

﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ حيث ينال بها صاحبها في الآخرة كلّ ما كان يؤمّله في الدنيا، وأمّا ما مرّ مِن المال والبنين فليس لصاحبه أمل يناله. وتكرير ﴿خَيْرٌ﴾ للإشعار باختلاف حيثيَّتَي الخيريّة والمبالغة فيها.

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ منصوب بمضمر، أي: اذكر حين نقلَعها مِن أماكنها ونُسيِّرها في الجوّ على هيئاتها، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل، ٨٨/٢٧]، أو نُسيِّر أجزاءها بعد أن نجعلها هباءً مُنبَثًّا. والمراد بتذكيره تحذير المشركين ممّا فيه مِن الدواهي. وقيل: هو معطوف على ما قبله مِن قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾، أي: الباقيات الصالحات خير عند الله ويوم القيامة. وقرئ: "تُسَيَّرُ"[1] على صيغة البناء للمفعول مِن "التفعيل" جريًا على سَنن الكِبرياءِ وإيذانًا بالاستغناء عن الإسناد إلى الفاعل لتعيّنه، وقرئ: "تَسِيْرُ".[2]

﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ﴾ أي: جميع جوانبها، والخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم أو لكلّ أحد ممّن يتأتّى منه الرؤيةُ، وقرئ: "تُرَى"[3] على صيغة البناء للمفعول. ﴿بَارِزَةً﴾ أمّا بروزُ ما تحت الجبال فظاهر، وأمّا ما عداه فكانت الجبال تحُول بينه وبين الناظر قبل ذلك، فالآن أضحى قاعًا صَفْصَفًا لا ترى فيها عِوجًا ولا أَمْتًا.

﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ جمعناهم إلى الموقف مِن كل أَوْب. وإيثار صيغة الماضي / بعد ﴿نُسَيِّرُ﴾ و﴿تَرَى﴾ للدلالة على تحقّق الحَشْر المتفرّع على البعث الذي يُنكره [٤٢٣ظ] المنكرون، وعليه يدور أمْر الجزاء، وكذا الكلام فيما عُطف عليه منفيًّا وموجَبًا.

---

١ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر. **النشر** لابن الجزري، ٣١١/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصن وكِرداب، والثقفي ومِنهال عن يعقوب، ومحبوب والأزرق عن أبي عمرو. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٨٩؛ **المغني في القراءات** للنُّوْزاوازي، ص ١١٦٦.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي معاذ النحوي عن بعض القرّاء. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٨٩.

وقيل: هو للدلالة على أنّ حَشْرهم قبل التسيير والبروز ليُعاينوا تلك الأهوال، كأنّه قيل: وحشرناهم قبل ذلك.[١]

﴿فَلَمْ نُغَادِرْ﴾ أي: لم نترُك ﴿مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ يقال: "غادره وأغدَره" إذا تركه، ومنه الغَدْر الذي هو تَرْك الوفاء، والغديرُ الذي هو: ما يتركه السيل في الأرض الغائرة. وقرئ بالياء،[٢] وبالفوقانيّة[٣] على إسناد الفعل إلى ضمير ﴿ٱلْأَرْضَ﴾، كما في قوله: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق، ٤/٨٤].

﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ شُبِّهت حالهم بحال جند عُرضوا على السلطان ليأمُر فيهم بما يأمُر، وفي الالتفات إلى الغَيبة[٤] وبناءِ الفعل للمفعول مع التعرّض لعنوان الربوبيّة والإضافة إلى ضميره عليه السلام مِن تربية المهابة والجَري على سَنن الكبرياء وإظهار اللطف به عليه السلام ما لا يخفى. ﴿صَفًّا﴾ أي: غيرَ متفرّقين ولا مختلِطين فلا تعرُّض فيه لوَحدة الصفّ وتعدُّده، وقد ورد في الحديث الصحيح: «يجمَع الله الأوّلين والآخِرين في صعيد واحد صُفوفًا».[٥]

﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ على إضمار القول على وَجْه يكون حالًا مِن ضمير ﴿عُرِضُوا﴾، أي: مقولًا لهم، أو وقلنا لهم، وأمّا كونه عاملًا في ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ﴾[٦] كما قيل فبعيدٌ مِن جزالة التنزيل الجليل، كيف لا، ويلزم منه أنّ هذا القول هو المقصود بالأصالة دون سائر القوارع مع أنّه خاصُّ التعلّق بما قبله مِن العَرض والحشر دون تسيير الجبال وبروز الأرض.

---

١ كذا في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٤٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبان عن عاصم. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٦٦.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٠.

٤ وفي هامش م: حيث لم يقل علينا. «منه».

٥ مسند أحمد، ١٥/٣٨٤ (٩٦٢٣)؛ صحيح البخاري، ٤/١٣٤ (٣٣٤٠).

٦ في الآية السابقة.

﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ نعت لمصدر مقدَّر، أي: مجيئًا كائنًا كمجيئكم عند خَلْقنا لكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾، أو حال مِن ضمير ﴿جِئْتُمُونَا﴾، أي: كائنين كما خلقناكم أوّل مرّة حُفاةً عُراة غُرْلًا، أو ما معكم شيء ممّا تفتخرون به مِن الأموال والأنصار، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام، ٦/٩٤].

﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ إضراب وانتقال مِن كلام إلى كلام كلاهما للتوبيخ والتقريع، أي: زعمتُم في الدنيا أنّه لن نجعَل لكم أبدًا وقتًا نُنجِز فيه ما وعدناه مِن البعث وما يتبَعه. و"أن" مخفَّفة / مِن المثقَّلة فُصِل بحرف النفي بينها وبين خبرها لكونه جملة فعليّة متصرِّفة غيرَ دعاء. والظرف إمّا مفعول ثانٍ للجَعْل وهو بمعنى التصيير والأوّلُ هو ﴿مَوْعِدًا﴾، أو حال مِن ﴿مَوْعِدًا﴾ وهو بمعنى الخَلْق والإبداع. [٤٢٤و]

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ عطفٌ على ﴿عُرِضُوا﴾[1] داخل تحت الأمور الهائلة التي أريدَ تذكيرُها بتذكير وقتها وأُوردَ فيه ما أُوردَ في أمثاله مِن صيغة الماضي دلالة على التقرّر أيضًا، أي: وُضع صحائف الأعمال. وإيثار الإفراد للاكتفاء بالجنس. والمراد بوضعها إمّا وضعُها في أيدي أصحابها يمينًا وشمالًا وإمّا في الميزان. ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ قاطبة، فيدخُل فيهم الكفَرة المنكِرون للبعث دخولًا أوّليًا. ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين ﴿مِمَّا فِيهِ﴾ مِن الجرائم والذنوب.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ عند وقوفِهم على ما في تضاعيفه نَقيرًا وقِطميرًا ﴿يَٰوَيْلَتَنَا﴾ مُنادين لهَلَكتهم التي هلَكوها مِن بين الهلَكات مستدعين لها ليهلِكوا ولا يرَوا هول ما لاقَوه، أي: يا ويلتنا احضُري فهذا أوان حضورك. ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: أيُّ شيء له؟ وقولُه تعالى: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ أي:

---

[1] في الآية السابقة.

حواها وضبطها، جملة حاليّة محقِّقة لِما في الجملة الاستفهاميّة مِن التعجّب، أو استئنافيّة مبنيّة على سؤال نشأ مِن التعجّب، كأنّه قيل: ما شأنه حتّى يُتعجَّب منه؟ فقيل: لا يغادر سيّئةً صغيرةً / ولا كبيرة إلّا أحصاها. [٤٢٤ظ]

﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟﴾ في الدنيا مِن السيّئات، أو جزاءَ ما عملوا ﴿حَاضِرًا﴾ مسطورًا عتيدًا. ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ فيكتبَ ما لم يُعمَل مِن السيّئات، أو يزيد في عقابه المستحقّ فيكون إظهارًا لمَعدَلة القلم الأزلي.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۚ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۖ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ أي: اذكر وقت قولنا لهم: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ﴾ سجودَ تحيّة وتكريم، وقد مرّ تفصيله ﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾ جميعًا امتثالًا بالأمر ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ فإنّه لم يسجُد؛ بل أبى واستكبر.

وقوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ كلام مستأنَف سِيق مَساقَ التعليل لِما يفيده استثناء اللعين مِن الساجدين، كأنّه قيل: ما له لم يسجُد؟ فقيل: كان أصلُه جنِّيًّا،[1] ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ أي: خرج عن طاعته كما ينبئ عنه "الفاء"، أو صار فاسقًا كافرًا بسبب أمر الله تعالى، إذ لولاه لَما أبى. والتعرّض لوَصْف الربوبيّة النافية للفِسق لبيان كمال قبح ما فعَله.

والمراد بتذكير قصّته تشديدُ النكير على المتكبِّرين المفتخرين بأنسابهم وأموالهم المستنكِفين عن الانتظام في سِلك فقراء المؤمنين ببيان أنّ ذلك مِن صنيع إبليسَ وأنّهم في ذلك تابعون لتسويله، كما ينبئ[2] قوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ... إلخ، فإنّ الهمزة للإنكار والتعجيب و"الفاء" للتعقيب، أي: أعَقيبَ عِلمكم بصدور تلك القبائح عنه تتّخذونه ﴿وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ أي: أولاده وأتباعه؟ جُعلوا ذرّيّته مجازًا. قال قتادة: يتوالدون كما يتوالد بنو آدمَ. وقيل: يُدخل ذنبَه في دُبُره فيبِيض / فتنفلِق البيضة مِن جماعة مِن الشياطين. [٤٢٥و]

---

[1] ط س: خبيثًا.

[2] ط س + عنه.

﴿أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ فتستبدلونهم بي فتطيعونهم بدَل طاعتي، ﴿وَهُمْ﴾ أي: والحال أن إبليسَ وذرّيّته ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ أي: أعداء، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء، ٧٧/٢٦]، وقولِه تعالى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ [المنافقون، ٤/٦٣]، وإنّما فُعل به ذلك تشبيهًا له بالمصادر نحو "القَبول" و"الولوع". وتقييد "الاتّخاذ" بالجملة الحاليّة لتأكيد الإنكار وتشديده، فإنّ مضمونها مانع مِن وقوع الاتّخاذ ومُنافٍ له قطعًا.

﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الواضعين للشيء في غير موضعه ﴿بَدَلًا﴾ مِن الله سبحانه إبليسُ وذرّيّته. وفي الالتفات إلى الغَيبة مع وَضْع الظالمين موضعَ الضمير مِن الإيذان بكمال السخط والإشارة إلى أنّ ما فعلوه ظلمٌ قبيح ما لا يخفى.

﴿مَآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾

﴿مَآ أَشْهَدتُّهُمْ﴾ استئناف مَسوق لبيان عدم استحقاقهم للاتّخاذ المذكور في أنفسهم بعد بيان الصوارف عن ذلك مِن خَباثة المَحتِد والفِسق والعداوة، أي: ما أحضَرتُ إبليسَ وذرّيّته ﴿خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ حيث خلقتُهما قبل خَلْقهم ﴿وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: ولا أشهدتُ بعضهم خَلْق بعض، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء، ٢٩/٤].

هذا ما أجمع عليه الجمهور حِذارًا مِن تفكيك الضميرين ومحافظة على ظاهر لفظ الأنفس. / ولك أن تُرجع الضمير الثانيَ إلى "الظالمين" وتلتزمَ [٤٢٥ظ] التفكيك بناءً على قَوْد المعنى إليه، فإنّ نفيَ إشهاد الشياطين خَلْق الذين يتولّونهم هو الذي يدور عليه إنكار اتّخاذهم أولياء بناء على أنّ أدنى ما يصحِّح التولّيَ حضورُ الوليّ خَلْق المتولّى وحيث لا حضورَ لا مصحِّحَ للتولّي قطعًا.

وأمّا نفيُ إشهاد بعض الشياطين خَلْق بعض منهم فليس مِن مداريّة الإنكار المذكور في شيء، على أنّ إشهاد بعضهم خَلْق بعض إن كان مصحِّحًا

لتولّي الشاهد بناءً على دلالته على كماله باعتبار أنّ له مدخلًا في خلق الشهود في الجملة فهو مُخِلٌّ بتولي المشهودِ بناءً على قصوره عمّن شهِد خَلْقه، فلا يكون نفيُ الإشهاد المذكور متمحِّضًا في نفي الكمال المصحِّح للتولّي عن الكلّ، وهو المَناط للإنكار المذكور.

﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ﴾ أي: متّخذَهم، وإنّما وُضع موضعَه المُظهَر ذمًّا لهم وتسجيلًا عليهم بالإضلال وتأكيدًا لِما سبق مِن إنكار اتّخاذهم أولياءَ. ﴿عَضُدًا﴾ أعوانًا في شأن الخَلْق، أي:[1] في شأن مِن شئوني حتّى يُتوهّم شركتهم في التولّي بناء على الشركة في بعض أحكامِ الربوبيّة.

وفيه تهكّمٌ بهم وإيذانٌ بكمال ركاكة عقولِهم وسخافةِ آرائِهم حيث لا يفهمون هذا الأمرَ الجليَّ الذي لا يكاد يشتبه على البُلْه والصبيان فيحتاجون إلى التصريح به. وإيثار نفيِ الإشهاد على نفي شهودهم ونفيِ اتّخاذِهم أعوانًا على نفي كونهم كذلك للإشعار بأنّهم مقهورون تحت قدرته تعالى / [2] تابعون لمشيئته وإرادتِه فيهم، وأنّهم بمَعزِل مِن استحقاق [٤٢٦و] الشهود والمعونة مِن تلقاء أنفسِهم مِن غير إحضار واتّخاذ. وإنّما قُصارى ما يُتوهَّم في شأنهم أن يبلُغوا ذلك المبلغ بأمر الله عزّ وجلّ ولم يكد ذلك يكون.

وقيل: الضميرُ للمشركين، والمعنى: ما أشهدتُهم خَلْق ذلك، وما أطلعتُهم على أسرار التكوين، وما خصَصْتُهم بفضائلَ لا يحويها غيرهم حتّى يكونوا قدوة للناس فيؤمنوا بإيمانهم كما يزعمون، فلا تَلتفتْ إلى قولهم طمعًا في نُصرتهم للدين فإنّه لا ينبغي لي أن أعتضِدَ بالمُضِلّين. ويعضُده القراءة بفتح "التاء"[3] خطابًا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، والمعنى: ما صحّ لك الاعتضادُ بهم.

---

١ ط س: أو.

٢ هنا ينتهي اختلاط الترتيب في عشرة الألواح في نسخة المؤلّف.

٣ قرأ بها أبو جعفر بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٣١١.

ووصفُهم بالإضلال لتعليل نفي الاتّخاذ، وقرئ: "مُتَّخِذًا المُضِلِّيْنَ"[١] على الأصل، وقرئ: "عُضْدًا"[٢] بضمّ العين وسكون الضاد، وبفتح وسكون[٣] بالتخفيف، وبضمّتين[٤] بالإتباع، وبفتحتين[٥] على أنّه جمع "عاضد" كـ"رَصَد" و"راصد".

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾﴾

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ أي: الله عزّ وجلّ للكافرين توبيخًا وتعجيزًا، وقرئ بنون العظمة.[٦] ﴿نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أنّهم شفعاؤكم ليشفعوا لكم، والمراد بهم كلُّ ما عُبد مِن دونه تعالى. وقيل: إبليسُ وذرِّيّته.[٧] ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ أي: نادوهم للإغاثة. وفيه بيان لكمال اعتنائهم بإعانتهم على طريقة الشفاعة؛ إذ معلومٌ ألّا طريقَ إلى المدافعة. ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ فلم يُغيثوهم إذ لا إمكان لذلك. وفي إيراده مع ظهوره تهكّمٌ بهم وإيذانٌ بأنّهم في الحماقه بحيث لا يفهمونه إلّا بالتصريح به.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم﴾ بين الداعين والمَدعوّين ﴿مَّوْبِقًا﴾ اسم مكان، أو مصدر مِن "وبَق وُبوقًا" كـ"وثب وثوبًا"، أو "وَبِق وَبَقًا" كـ"فَرِح فَرَحًا"، إذا هلَك، أي: مَهلِكًا يشتركون فيه وهو النار، أو عداوة وهي في الشِّدّة نفس الهلاك، كقول عمرَ رضي الله عنه: «لا يكن حبُّك كلَفًا ولا بغضُك تلَفًا».[٨] وقيل: البين:

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب والجَحدري. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٤؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١١٦٨.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وأبي حَيْوَة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٠؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١١٦٨.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج ونُعيم، وعبّاس عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٠؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١١٦٨.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وهارون، وخارجة والخفّاف وأبي زيد كلُّهم عن أبي عمرو. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٤؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١١٦٨.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمر والحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٠؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١١٦٨.

٦ قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٣١١/٢.

٧ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٤٤/٢.

٨ الأدب المفرد للبخاري، ٤٤٨ (١٣٢٢)؛ شعب الإيمان للبيهقي، ٥١٧/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٣٥/٢.

الوصل،[1] أي: وجعلنا تواصُلهم في الدنيا هلاكًا في الآخرة. ويجوز أن يكون المراد / بـ"الشركاء" الملائكة وعُزيرًا وعيسى عليهم السلام ومريمَ، وبالمَوبِق البرزخَ البعيدَ، أي: جعلنا بينهم أمدًا بعيدًا يهلك فيه الأشواط لفَرْط بُعده؛ لأنّهم في قَعر جهنّمَ وهم في أعلى الجنان. [٤٠٥ظ]

﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾

﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ وُضع المظهرُ مقام المُضمر تصريحًا بإجرامهم وذمًّا لهم بذلك ﴿فَظَنُّوٓا۟﴾ أي: فأيقنوا ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ مُخالطوها واقعون فيها، أو ظنّوا إذ رأوها مِن مكان بعيد أنّهم مواقعوها الساعةَ ﴿وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ انصرافًا أو معدِلًا ينصرِفون إليه.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أي: كرَّرنا وأوردنا على وجوه كثيرة مِن النَّظم ﴿فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ﴾ لمصلحتهم ومنفعتهم ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ مِن جملته ما مرّ مِن مَثل الرجُلين ومَثل الحياة الدنيا، أو مِن كلّ نوع مِن أنواع المعاني البديعة الداعية إلى الإيمان التي هي في الغرابة والحُسن واستجلاب النفس كالمَثل ليتلقّوه بالقَبول فلم يفعلوا.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ بحسب جِبلَّته ﴿أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ أي: أكثرَ الأشياء التي يتأتّى منه الجدل، وهو ههنا شدّة الخُصومة بالباطل والمماراة مِن "الجَدْل" الذي هو الفتْل. والمجادلةُ: المُلاواة؛ لأنّ كلًّا مِن المُجادِلَين يلتوي على صاحبه. وانتصابُه على التمييز، والمعنى أنّ جدَله أكثر مِن جدَل كلّ مجادِل.

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: أهلَ مكّةَ الذين حُكيت أباطيلهم ﴿أَن يُؤْمِنُوٓا۟﴾ مِن أن يؤمنوا بالله تعالى ويتركوا ما هم فيه مِن الإشراك ﴿إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: القرآن العظيم

---

[1] وهو قول الفرّاء في **معاني القرآن**، ٢/١٤٧؛ ونقله عنه الزمخشري في **الكشّاف**، ٢/٥٣٥.

الهادي إلى الإيمان بما فيه مِن فنون المعاني الموجبة له، ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾ عمّا فرَط منهم مِن أنواع الذنوب التي مِن جملتها مجادلتُهم للحقّ بالباطل، ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ / أي: إلّا طلبُ إتيان سُنّتهم أو إلّا انتظارُ إتيانها، أو [٤٠٦و] إلّا تقديرُه، فحُذف المضاف وأقيمَ المضاف إليه مُقامَه، وسنّتُهم الاستئصال.

﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: عذابُ الآخرة ﴿قُبُلًا﴾ أي: أنواعًا، جَمْع "قَبيل"، أو عِيانًا كما في قراءة "قِبَلًا"[١] بكسر "القاف" وفتح "الباء"، وقرئ بفتحتين،[٢] أي: مستقبَلًا، يقال: "لقِيتُه قِبَلًا وقُبُلًا وقَبَلًا". وانتصابُه على الحاليّة مِن الضمير أو ﴿ٱلْعَذَابُ﴾، والمعنى أنّ ما تضمّنه القرآن الكريم مِن الأمور المستوجِبة للإيمان بحيث[٣] لو لم يكن مِثلَ هذه الحكمة القويّة لَما امتنع الناس مِن الإيمان، وإن كانوا مجبولين على الجدَل المفْرِط.

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إلى الأمَم ملتبِسين بحال مِن الأحوال ﴿إِلَّا﴾ حالَ كونهم ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ للمؤمنين بالثواب ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ للكفرة والعصاة بالعقاب. ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ باقتراح الآياتِ بعد ظهور المعجزات والسؤالِ عن قصّة أصحاب[٤] الكهفِ ونحوها تعنُّتًا ﴿لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ﴾ أي: بالجدال ﴿ٱلْحَقَّ﴾ أي: يُزيلوه عن مركزه ويُبطلوه مِن "إدحاض القدم" وهو إزلاقها، وهو قولهم للرسل عليهم السلام: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس، ١٥/٣٦]، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المؤمنون، ٢٤/٢٣]، ونحوُهما.

﴿وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى﴾ التي تخِرّ لها صُمّ الجبال ﴿وَمَآ أُنذِرُوا۟﴾ أي: أُنذروه مِن القوارع الناعية عليهم العقابَ والعذابَ، أو إنذارَهم، ﴿هُزُوًا﴾ استهزاءً، وقرئ بسكون الزاء[٥] وهو ما يُستهزأ به.

---

١ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣١١/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ بن كعب. المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١١٦٩.

٣ وفي هامش م: خبر "أنّ".

٤ س: أصحاف.

٥ قرأ بها حمزة وخلف. النشر لابن الجزري، ٢١٥/٢.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ﴾ وهو القرآن العظيم ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ ولم يتدبّرها ولم يتذكّر بها. وهذا السَّبك وإن كان مدلوله الوضعي نفيَ الأظلميّة مِن غير تعرّض لنفي المساواة في الظلم إلّا أنّ مفهومه العُرفي أنّه أظلم مِن كلّ ظالم، وبناءُ الأظلميّة على ما في / حيّز الصلة مِن الإعراض عن القرآن للإشعار [٤٠٦ظ] بأنّ ظُلمَ مَن يجادل فيه ويتّخذه هزوًا خارجٌ عن الحدّ. ﴿وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: عَمِلَه مِن الكفر والمعاصي التي مِن جملتها ما ذُكر مِن المجادَلة بالباطل والاستهزاء بالحقّ ولم يتفكّر في عاقبتها.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية كثيرة جمع "كِنان"، وهو تعليل لإعراضهم ونسيانهم بأنّهم مطبوع على قلوبهم ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ مفعول لِما دلّ عليه الكلام أي: منعناهم أن يقفوا[1] على كُنهه، أو مفعول له، أي: كراهةَ أن يفقهوه. ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أي: جعلنا فيها ﴿وَقْرًا﴾ ثِقَلًا يمنعهم مِن استماعه.

﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ أي: فلن يكون منهم اهتداء البتّةَ مدّةَ التكليف. و﴿إِذًا﴾ جزاء للشرط وجواب عن سؤال النبيّ عليه الصلاة والسلام المدلول عليه بكمال عنايته بإسلامهم، كأنّه قال عليه السلام: مالي لا أدعوهم؟ فقيل: إن تدعُهم... إلخ، وجَمْعُ[2] الضميرِ الراجع إلى الموصول في هذه المواضع الخمسة باعتبار[3] معناه، كما أنّ إفراده في المواطن الخمسة المتقدِّمة باعتبار لفظه.

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾

﴿وَرَبُّكَ﴾ مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ خبرُه، وقوله تعالى: ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي: الموصوف بها، خبرٌ بعد خبر. وإيراد المغفرة على صيغة المبالغة دون الرحمة

---

[1] س: يَقفوه.
[2] وفي هامش م: مبتدأ.
[3] وفي هامش م: خبر.

للتنبيه على كثرة الذنوب، ولأنّ المغفرة تَرْك المضارّ وهو سبحانه قادر على ترك ما لا يتناهى مِن العذاب، وأمّا الرحمة فهي فعل وإيجاد، ولا يدخل تحت الوجود إلّا ما يتناهى.

وتقديم الوصف الأوّل لأنّ التخلية قبل التحلية، أو لأنّه أهمُّ بحسب الحال، إذ المقام مقام بيانِ تأخير العقوبة عنهم بعد استيجابهم لها، كما يُعرب عنه قوله عزّ وجلّ: ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم﴾ أي: لو يريد[1] / مؤاخَذتهم ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ مِن [٤٠٧و] المعاصي التي مِن جملتها ما حُكي عنهم مِن مجادلتهم بالباطل وإعراضِهم عن آيات ربّهم وعدمِ المبالاة بما اجترحوا مِن المُوبقات، ﴿لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ لاستيجاب أعمالهم لذلك.

وإيثار المؤاخذة المنبئة عن شدّة[2] الأخذ بسرعة على التعذيب والعقوبة ونحوها للإيذان بأنّ النفيَ المستفاد مِن مقدَّم الشرطيّة متعلِّق بوَصْف السرعة كما ينبئ عنه تاليها. وإيثار صيغة الاستقبال وإن كان المعنى على المُضيّ لإفادة أنّ انتفاء تعجيل العذاب لهم بسبب استمرار عدم إرادة المؤاخذة، فإنّ المضارع الواقع مَوقعَ الماضي يفيد استمرار انتفاء الفعل فيما مضى، كما حُقِّق في موضعه.

﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾ اسم زمان هو يوم بدر أو يوم القيامة، والجملة معطوفة على مقدَّر كأنّه قيل: لكنّهم ليسوا مؤاخَذين بغتةً، ﴿لَن يَجِدُوا﴾ البتّةَ ﴿مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ مَنجى أو مَلجأ، يقال: "وأل"، أي: نجا، و"وأل" إليه، أي: لجأ إليه.

﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾

﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ أي: قرى عاد وثمودَ وأضرابها، وهي مبتدأ على تقدير المضاف، أي: وأهلُ تلك القرى، خبرُه قوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾، أو مفعول مضمرٍ مفسَّرٍ به ﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ أي: وقت ظلمهم، كما فعلت قريشٌ بما حُكي عنهم مِن القبائح. وتركُ المفعول إمّا لتعميم الظلم أو لتنزيله منزلةَ اللازم،

---

[1] وفي هامش م: فإنّ ترتيب تعجيل العذاب على نفس المؤاخذة غيرُ مفيد. «منه».

[2] وفي هامش م: الشِّدّة مستفادة مِن صيغة المغالبة الدالّة على المبالغة.

أي: لمّا فعلوا الظلم. و﴿لَمَّا﴾ إمّا حرف كما قال ابن عصفور،[١] وإمّا ظرف استعمل للتعليل، وليس المراد به الوقت المعيَّن الذي عمِلوا فيه الظلم؛ بل زمان ممتدّ مِن ابتداء الظلم إلى آخره.

﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم﴾ أي: عيّنّا لهلاكهم ﴿مَوْعِدًا﴾ أي: وقتًا معيَّنًا لا محيدَ لهم عن ذلك. وهذا استشهاد على ما فُعل بقريشٍ مِن تعيين الموعد ليتنبهوا لذلك ولا يغترّوا / بتأخّر العذاب. وقرئ بضمّ "الميم" وفتح "اللام"،[٢] أي: إهلاكهم، وبفتحهما.[٣] [٤٠٧ظ]

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ نصب بإضمار فعل، أي: اذكُرْ وقتَ قوله عليه السلام ﴿لِفَتَىٰهُ﴾ وهو يوشعُ بن نونِ بن أفرائيمَ بن يوسفَ عليه السلام، سُمّيَ فتاه إذ كان يخدمه ويتّبعه. وقيل: كان يتعلّم منه،[٤] ويُسمّى التلميذُ فتًى وإن كان شيخًا، ولعلّ المرادَ بتذكيره عَقيب بيان أنّ لكلّ أمّة موعدًا تذكيرُ ما في القصّة مِن موعد الملاقاة مع ما فيها مِن سائر المنافع الجليلة.

﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ مِن "برِح" الناقص كـ"زال يزال"، أي: لا أزال أسير، فحُذف الخبر اعتمادًا على قرينة الحال إذ كان ذلك عند التوجّه إلى السفر واتّكالًا على ما يعقُبه مِن قوله: ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ﴾ فإنّ ذلك غايةٌ تستدعي ذا غاية يؤدّي إليها، ويجوز أن يكون أصل الكلام "لا يبرَحُ مسيري حاصلًا حتّى أبلُغ"، فيُحذَف المضاف ويُقام المضاف إليه مُقامَه، فينقلب الضمير البارز المجرور المحلّ مرفوعًا مستكِنًّا، والفعلُ مِن صيغة الغَيبة إلى التكلّم.[٥]

ويجوز أن يكون مِن "برِح" التامّ كـ"زال يزول"، أي: لا أفارق ما أنا بصدده حتّى أبلغ ﴿مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ هو ملتقى بحر فارسَ والروم ممّا يلي المشرِق.

---

١ هذا رأي ابن خروف كما نقل الرضيُّ في شرح الكافية ٣/٢٣٠.

٢ قرأ بها العشرة إلّا عاصمًا. النشر لابن الجزري، ٢/٣١١.

٣ قرأ بها أبو بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٣١١.

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٣٧.

٥ الكلام بلفظ قريب في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٤٦.

وقيل: طَنجَةُ.[١] وقيل: هما الكُرّ[٢] والرَّسّ[٣] بإرْمِينِيَةَ.[٤] وقيل: إفريقيّة.[٥] وقرئ بكسر "الميم"[٦] كـ"مَشرِق".

﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ أسير زمانًا طويلًا أتيقّن معه فواتَ المطلَب. والحُقُب: الدهر أو ثمانون سَنة، وكان منشأ هذه العزيمة أنّ موسى عليه السلام لمّا ظهَر على مصرَ مع بني إسرائيلَ واستقرُّوا بها بعد هلاك القِبط[٧] أمره الله عزّ وجلّ أن يذكّر قومه النعمةَ فقام فيهم خطيبًا بخطبة بديعة رقّت بها القلوب وذرَفت العيون، / فقالوا له: مَن أعلمُ الناس؟ قال: أنا. فعتب الله تعالى عليه إذ لم يردّ [٤٠٨و] العلم إليه عزّ وجلّ، فأوحى إليه: بل أعلمُ منك عبدٌ لي عند مجمَع البحرين وهو الخَضِر عليه السلام.[٨] وكان في أيّام أفريدون قبل موسى عليه السلام، وكان على مقدّمة ذي القرنين الأكبر وبقيَ إلى أيّام موسى.[٩]

وقيل: إنّ موسى عليه السلام سأل ربّه: «أيُّ عبادِك أحبّ إليك؟» قال: «الذي يذكرُني ولا ينساني». قال: «فأيُّ عبادك أقضى؟» قال: «الذي يقضي بالحقّ

---

١ مَرويّ عن محمّد بن كعب في **جامع البيان** للطبري، ٣٠٩/١٥؛ و**معالم التنزيل** للبغوي، ١٨٥/٥؛ وهو بلا عزو في **الكشّاف** للزمخشري، ٥٣٧/٢. | طَنْجة: مدينة على ساحل بحر المغرب، مقابل الجزيرة الخضراء، مِن البرّ الأعظم وبلاد البربر، وهي مدينة أزليّة خصبة آثارها باقية وبناؤها بالحجارة قائمة على البحر. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ٤٣/٤.

٢ الكُرّ: نهر بين أرمينيّة وأران، يشقّ مدينة تفليس، وبينه وبين برذعة فرسخان، ثمّ يجتمع هو ونهر الرسّ بالجمع ويصبّ في بحر الخَزَر وهو بحر طبرستان، وقيل: هو موضع بفارس، والمشهور الأوّل. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ٤٥١/٤.

٣ الرَّسّ: قرية باليمامة يقال لها فلج، وقيل: وادي أذربيجان وحدّ أذربيجان ما وراء الرَّسّ، وقيل: ديار لطائفة مِن ثمود. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ٤٣/٣-٤٤.

٤ مرويّ عن السدّي في **تفسير ابن أبي حاتم**، ٢٣٧٦/٧؛ و**تفسير القرطبي**، ٩/١١.

٥ مرويّ عن أُبيّ بن كعب في **معالم التنزيل** للبغوي، ١٨٥/٥؛ وهو بلا عزو في **الكشّاف** للزمخشري، ٥٣٧/٢.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن عُبيد بن مُسلم بن يسار وعُبيد بن عُمير. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٨٤؛ **المغني في القراءات** للنَّوْزاوازي، ص ١١٧١.

٧ القبط: كلمة يونانيّةُ الأصل بمعنى سُكّان مصر، ويقصد بهم اليوم: المسيحيون مِن المصريّين. انظر لِما قيل فيهم في المصادر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ١٩١/١٤؛ و**لبّ اللباب** للسيوطي، ص ٢٠٣.

٨ بلفظ قريب في **صحيح البخاري**، ٣٥/١ (١٢٢).

٩ الكلام بلفظ قريب في **الكشّاف** للزمخشري، ٥٣٧/٢.

ولا يتّبع الهوى». قال: «فأيُّ عبادك أعلمُ؟» قال: «الذي يبتغي عِلمَ الناس إلى عِلمه عسى أن يصيب كلمةً تدلُّه على هدى أو تردّه عن ردى»، فقال: «إن كان في عبادك مَن هو أعلمُ منّي فدلَّني عليه»، قال: «أعلمُ منك الخَضِر» قال: «أين أطلبه؟» قال: «على ساحل البحر عند الصخرة». قال: «يا ربّ كيف لي به؟» قال: «تأخذ حوتًا في مِكْتل فحيثما فقَدته فهو هناك». فأخذ حوتًا فجعله في مِكْتل، فقال لفتاه: «إذا فقدتَ الحوتَ فأخبرني» فذهبا يمشيان.[1]

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾

﴿فَلَمَّا بَلَغَا﴾ "الفاء" فصيحة كما أشيرَ إليه ﴿مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ أي: مجمَع البحرين، و﴿بَيْنِهِمَا﴾ ظرف أضيفَ إليه اتّساعًا، أو بمعنى الوصل. ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ الذي جُعل فقدانه أمارة وُجدان المطلوب، أي: نسيا تفقُّد أمره وما يكون منه. وقيل: نسيَ يُوشَع أن يقدِّمه وموسى عليهما السلام أن يأمره فيه بشيء.[2]

رُوي أنّهما لمّا بلغا مجمَع البحرين وفيه الصخرة وعين الحياة التي لا يصيب ماؤها ميتًا إلّا حيَّ وضعا رءوسَهما على الصخرة فناما، فلمّا أصاب الحوتَ بردُ الماء ورَوحُه عاش،[3] وقد كانا أكلا منه، وكان ذلك بعد ما استيقظ يُوشَع عليه السلام. وقيل: توضّأ عليه السلام مِن تلك / العين فانتضح الماء [٤٠٨ظ] على الحوت فعاش فوقع في الماء.[4]

﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ مسلَكًا كالسَّرَب وهو: النَّفَق. قيل: أمسك الله عزّ وجلّ جِرْيَة الماء على الحوت فصار كالطاق عليه،[5] معجزة لموسى أو للخضر عليهما السلام. وانتصاب ﴿سَرَبًا﴾ على أنّه مفعول ثانٍ لـ﴿ٱتَّخَذَ﴾، و﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾ حال منه أو مِن "السبيل"، ويجوز أن يتعلَّق بـ﴿ٱتَّخَذَ﴾.

---

١ مرويّ بلفظ قريب عن ابن عبّاس في **جامع البيان** للطبري، ١٥/٣٢١-٣٢٢؛ وبعضه في **شعب الإيمان** للبيهقي، ٢/١٧١ (٦٧١)؛ وهو بلا عزو في **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٥٣٧.

٢ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٥٣٨.

٣ بلفظ قريب في **صحيح البخاري**، ٦/٩١ (٤٧٢٧)؛ **والكشّاف** للزمخشري، ٢/٥٣٨.

٤ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٥٣٨.

٥ بلفظ قريب في **صحيح البخاري**، ٤/١٥٤ (٣٤٠١)؛ **والكشّاف** للزمخشري، ٢/٥٣٨.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ أي: مجمَع البحرين الذي جُعل موعدًا للملاقاة، قيل: أدلجا وسارا الليلة والغد إلى الظهر، وأُلقي على موسى عليه السلام الجوع فعند ذلك ﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ أي: ما نتغذّى به، وهو الحوت كما ينبئ عنه الجواب، ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا﴾ إشارةٌ إلى ما سارا بعد مجاوزة الموعد ﴿نَصَبًا﴾ تعبًا وإعياءً. قيل: لم ينصَبْ ولم يجُعْ قبل ذلك.[1] والجملة في محلّ التعليل للأمر بإيتاء الغداء، إمّا باعتبار أنّ النصَب إنّما يعتري بسبب الضعف الناشئ عن الجوع، وإمّا باعتبار ما في أثناء التغذّي مِن استراحة ما.

﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾﴾

﴿قَالَ﴾ أي: فتاه عليهما السلام: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ أي: التجأنا إليها وأقمنا عندها. وذِكرُ الإواء إليها مع أنّ المذكور فيما سبَق مرّتين بلوغ مجمَع البحرين لزيادة تعيين محلّ الحادثة، فإنّ المجمَع محلّ متّسِع لا يمكن تحقيق المراد المذكور بنسبة الحادثة إليه، ولتمهيد العُذر فإنّ الإواء إليها والنومَ عندها ممّا يؤدّي إلى النسيان عادة، والرؤيةُ مستعارة للمعرفة التامّة والمشاهَدة الكاملة.

ومراده بالاستفهام تعجيب موسى عليهما السلام ممّا اعتراه هناك مِن النسيان مع كون ما شاهده مِن العظائم التي لا تكاد تُنسى، وقد جُعل فقدانه علامة لوجدان المطلوب، وهذا أسلوب معتاد فيما بين الناس، يقول أحدهم لصاحبه إذا نابه خَطْب: أرأيتَ ما نابني؟ يريد بذلك تهويله / وتعجيبَ صاحبه [٤٠٩و] منه وأنّه ممّا لا يُعهَد وقوعُه، لا استخبارُه[2] عن ذلك كما قيل.[3]

والمفعول محذوف اعتمادًا على ما يدلّ عليه مِن قوله عزّ وجلّ: ﴿فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾، وفيه تأكيد للتعجيب وتربية لاستعظام المَنسيّ. وإيقاع النسيان

---

١ بمعناه في صحيح البخاري، ٤/١٥٤ (٣٤٠١).

٢ وفي هامش م: معطوف على قوله: "تعجيب موسى عليه السلام". «منه».

٣ في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٣٨.

على اسم الحوت دون ضمير الغَداء مع أنّه المأمور بإتيانه للتنبيه مِن أوّل الأمر على أنّه ليس مِن قبيل نِسيان المسافر زادَه في المنزل، وأنّ ما شاهده ليس مِن قبيل الأحوال المتعلِّقة بالغداء مِن حيث هو غَداء وطعام؛ بل مِن حيث هو حوت كسائر الحِيتان مع زيادة، أي: نسِيتُ أن أذكُر لك أمره وما شاهدتُ منه مِن الأمور العجيبة.

﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ بوسوسته الشاغلة عن ذلك، وقوله تعالى: ﴿أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ بدَل اشتمال مِن الضمير، أي: ما أنساني أن أذكُره لك. وفي تعليق "الإنساء" بضمير الحوت أوّلًا وبذِكره له[1] ثانيًا على طريق الإبدال المنبئ عن تنحية المبدَل منه إشارةٌ إلى أنّ متعلَّق النسيان أيضًا ليس نفس الحوت؛ بل ذِكر أمره. وقرئ: "أَنْ أُذَكِّرَهُ"،[2] وإيثارُ ﴿أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ على المَصدر للمبالغة، فإنّ مدلوله نفس الحدَث عند وقوعه، والحالُ وإن كانت غريبة لا يُعهَد نسيانُها، لكنّه لمّا تعوّد بمشاهدة أمثالِها عند موسى عليه السلام وأَلِفَها قلّ اهتمامه بالمحافظة عليها.

﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ بيان لطرَف مِن أمر الحوت منبئ عن طرَف آخرَ منه، وما بينهما اعتراض قُدّم عليه للاعتناء بالاعتذار، كأنّه قيل: حَييَ واضطرب ووقَع في البحر واتّخذ سبيله فيه سبيلًا عجبًا. فـ﴿عَجَبًا﴾ ثاني مفعولَي ﴿ٱتَّخَذَ﴾، والظرفُ حال مِن أوّلهما أو ثانيهما، أو هو المفعول الثاني و﴿عَجَبًا﴾ صفة مصدر محذوف، أي: اتّخاذًا عجبًا وهو كون مسلَكه / كالطاق والسَّرَب، [٤٠٩ظ] أو مصدرُ فعل محذوف، أي: أتعجَّب منه عجبًا، وقد قيل: إنّه مِن كلام موسى عليه السلام. وليس بذاك.[3]

﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾

﴿قَالَ﴾ أي: موسى عليه السلام ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرتَ مِن أمر الحوت

---

١ وفي هامش م: عليه السلام.

٢ ما وقفتُ عليها فيما بين يديَّ مِن كتب القراءات والتفسير. وفيها قراءة قريبة: "أَنْ أُذَكِّرَكَهُ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. **المغني في القراءات** للنُّوزاواري، ص ١١٧٢.

٣ القول والردّ بلفظ قريب في **الكشّاف** للزمخشري، ٥٣٨/٢.

﴿مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ وقرئ بإثبات الياء،[1] والضميرُ العائد إلى الموصول محذوف، أصلُه "نبغيه"، أي: نطلُبه لكونه أمارة للفوز بالمَرام. ﴿فَٱرْتَدَّا﴾ أي: رجعا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا﴾ طريقهما الذي جاءا منه ﴿قَصَصًا﴾ يقُصّان قَصصًا، أي: يتّبعان آثارهما اتّباعا أو مقتصّين حتّى أتيا الصخرة.

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا﴾ التنكير للتفخيم والإضافة للتشريف. والجمهور على أنه الخَضِر واسمه بَلْيا بن مَلكان. وقيل: اليسع، وقيل: إلياس عليهم السلام.[2] ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ هي الوحي والنبوّة، كما يُشعِر به تنكير "الرحمة" واختصاصها بجَناب الكبرياء، ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ خاصًّا لا يُكتنه كُنهه ولا يُقادَر قَدره وهو عِلم الغيوب.

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن السِّياق، كأنّه قيل: فماذا جرى بينهما مِن الكلام؟ فقيل: قال له موسى: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ استئذانًا منه في اتِّباعه له على وجه التعلّم ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ أي: عِلمًا ذا رُشد أرشُد به في ديني، والرُّشد: إصابة الخير، وقرئ بفتحتين،[3] وهو مفعول ﴿تُعَلِّمَنِ﴾، ومفعول ﴿عُلِّمْتَ﴾ محذوف، وكلاهما منقول مِن "عَلَم" المتعدّي إلى مفعول واحد.

ويجوز كونه عِلّة لـ﴿أَتَّبِعُكَ﴾ أو مصدرًا بإضمار فعله، ولا ينافي نبوّته وكونَه صاحب شريعة أن يتعلّم مِن نبيّ آخرَ ما لا تعلُّقَ له بأحكام شريعته مِن أسرار العلوم الخفيّة، ولقد راعى في سَوق الكلام غاية التواضع معه عليهما السلام.

---

١ قرأ بإثباتها وصلًا نافع وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر، وقرأ بإثباتها في الحالين ابن كثير ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٦.

٢ الاسم والقولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٤٧.

٣ قرأ بها أبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣١١.

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾

[٤١٠و] ﴿قَالَ﴾ أي: الخَضِر: / ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ نفى عنه استطاعة الصبر معه على وجه التأكيد، كأنّه ممّا لا يصِحّ ولا يستقيم وعلّله بقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ إيذانًا بأنّه يتولّى أمورًا خفيّةَ المدار مُنكَرة الظواهر، والرجلُ الصالح لاسيّما صاحب الشريعة لا يتمالك أن يشمئزّ عند مشاهدتها.

وفي **صحيح البخاري** قال الخَضِر:[1] «يا موسى إنّي على عِلم مِن عِلم الله تعالى علّمنيه لا تعلَمه، وأنت على عِلم مِن عِلم الله علّمكَه الله لا أعلَمه».[2] و﴿خُبْرًا﴾ تمييز، أي: لم يُحط به خبرك.

﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ معك غيرَ معترض عليك. وتوسيطُ الاستثناء بين مفعولَي الوُجدان لكمال الاعتناء بالتيمّن ولئلّا يُتوهَّم تعلّقه بالصبر. ﴿وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ عطفٌ على ﴿صَابِرًا﴾، أي: ستجدني صابرًا وغيرَ عاصٍ. وفي وَعْد هذا الوُجدان مِن المبالغة ما ليس في الوَعْد بنفس الصبر وتَرْكِ العصيان، أو على ﴿سَتَجِدُنِي﴾ فلا محلّ له مِن الإعراب. والأوّل هو الأَولى لِما عرفتَه، ولظهور تعلُّقِه بالاستثناء حينئذ. وفيه دليل على أنّ أفعال العباد بمشيئة الله سبحانه.

﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾

﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى﴾ أذِن له في الإتّباع بعد اللَّتيّا والتي،[3] و"الفاء" لتفريع الشرطيّة على ما مرّ مِن التزام موسى عليه السلام للصبر والطاعة، ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ﴾ تُشاهده مِن أفعالي، أي: لا تفاتحْني بالسؤال عن حِكمته فضلًا عن المناقشة والاعتراض، ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أي: حتّى أبتدئ ببيانه.

---

١ س - الخضِر.

٢ **صحيح البخاري**، ١/٣٥ (١٢٢).

٣ اللَّتيّا والَّتي: يكنى بهما عن الشدّة، واللَّتيّا: تصغير التي، وهي عبارة عن الداهية المتناهية. **مجمع الأمثال** للميداني، ١/١٦٤.

وفيه إيذانٌ بأنّ كلّ ما صدَر عنه فله حكمة وغاية حميدة البتّةَ، وهذا مِن أدب المتعلِّم مع العالم والتابع مع المتبوع.

وقرئ: "فَلَا تَسْأَلَنِّي"[1] بالنون المثقَّلة.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾

﴿فَٱنطَلَقَا﴾ أي: موسى والخَضِر عليهما السلام على الساحل يطلبان السفينة، وأمّا يُوشَعُ فقد صرَفه موسى عليه السلام / إلى بني إسرائيلَ. قيل: إنّهما مرّا بسفينة فكَلّما أهلها فعرفوا الخَضِر فحملوهما بغير نَول.[2] [٤١٠ظ]

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ﴾ استعمال[3] "الركوب" في أمثال هذه المواقع بكلمة ﴿فِى﴾ مع تجريده عنها في مثل قوله عزّ وجلّ: ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل، ٨/١٦]، على ما يقتضيه تعديتُه بنفسه لِما[4] أشرنا إليه في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا﴾ [هود، ٤١/١١]، لا لِما قيل: مِن أنّ في ركوبها معنى الدخول. ﴿خَرَقَهَا﴾ قيل: خرقها بعد ما لجَّجُوا، حيث أخذ فأسًا فقلع مِن ألواحها لوحَين ممّا يلي الماء، فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ مِن الإغراق، وقرئ بالتشديد[5] مِن التغريق، و"لَيَغْرَقَ أَهْلُهَا"[6] مِن الثلاثي. ﴿لَقَدْ جِئْتَ﴾ أتيتَ وفعلتَ ﴿شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ أي: عظيمًا هائلًا مِن "أَمِرَ الأمرُ" إذا عظُم، قيل: الأصل "أَمِرٌ" فخفّف.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾

﴿قَالَ﴾ أي: الخَضِر: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ تذكير لِما قاله مِن قبلُ وتحقيق لمضمونه متضمِّن للإنكار على عدم الوفاء بوعده.

---

١ قرأ بها أبو عمرو وابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣١٢/٢.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٠/٢.

٣ وفي هامش م: مبتدأ.

٤ وفي هامش م: خبر.

٥ قراءة شاذّة، مروية عن الحسن وأبي رجاء وأيّوب السَّخْتِياني وابن مِقسَم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٢؛ المغني في القراءات للنُّوْزاوازي، ص ١١٧٤.

٦ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣١٣/٢.

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ بنسياني أو بالذي نسِيتُه، أو[1] بشيء نسيتُه، وهو وصيّته بألّا يسأله عن حكمة ما صدَر عنه مِن الأفعال الخفيّة الأسباب قبل بيانه، أراد[2] أنّه نسيَ وصيّته ولا مؤاخذة على الناسي كما ورد في **صحيح البخاري** مِن أنّ الأوّل كان مِن موسى نسيانًا،[3] أو أَخرَج الكلامَ في معرِض النهي عن المؤاخذة بالنسيان يُوهِمه أنّه قد نسِيَ ليبسُطَ عُذره في الإنكار، وهو مِن معاريض الكلام التي يُتّقى بها الكذب مع التوسّل إلى الغرض، أو أراد بالنسيان التَّرْك، أي: لا تؤاخذني بما تركتُ مِن وصيّتك أوّل مرّة.

﴿وَلَا تُرْهِقْنِي﴾ أي: لا تُغْشِني ولا تُحمِّلني ﴿مِنْ أَمْرِي﴾ وهو اتّباعه إيّاه ﴿عُسْرًا﴾ أي: لا تُعسِّر عليّ متابعتَك ويسِّرْها عليّ بالإغضاء وتَرْكِ المناقشة.

[٤١١و] وقرئ: "عُسُرًا"[4] / بضمّتين.

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾

﴿فَانطَلَقَا﴾ "الفاء" فصيحة، أي: فقَبِل عُذره فخرجا مِن السفينة فانطلقا ﴿حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ قيل: كان الغلام يلعب بالغلمان ففتَل عُنقه، وقيل: ضرَب برأسه الحائط،[5] وقيل: أضجعه فذبحه بالسكّين.[6]

﴿قَالَ﴾ أي: موسى عليه السلام: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ طاهرة عن الذنوب، وقرئ: "زَاكِيَةً".[7] ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي: بغير قتل نفس محرَّمة؟ وتخصيص نَفْي هذا المُبيح بالذِّكر مِن بين سائر المبيحات مِن الكفر بعد الإيمان والزنا بعد الإحصان لأنّه الأقرب إلى الوقوع نظرًا إلى حال الغلام.

---

١ س: أي.

٢ وفي هامش م: موسى.

٣ بلفظ قريب في **صحيح البخاري**، ١/٣٥ (١٢٢).

٤ قرأ بها أبو عمرو. **النشر** لابن الجزري، ٢/٢١٦.

٥ القولان في **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٥٤٠.

٦ مَرويّ عن سعيد بن جُبير في **جامع البيان** للطبري، ١٥/٣٤١؛ **والكشّاف** للزمخشري، ٢/٥٤٠.

٧ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر وخلف ورُويس. **النشر** لابن الجزري، ٢/٣١٣.

ولعلّ تغييرَ النظم الكريم بجَعْل ما صدَر عن الخَضِر عليه السلام ههنا مِن جملة الشرط، وإبرازِ ما صدَر عن موسى عليه السلام في معرِض الجزاء المقصود إفادته، مع أنّ الحقيق بذلك إنّما هو ما صدَر عن الخَضِر عليه السلام مِن الخوارق البديعة، لاستشراف النفس إلى ورود خبرها لقلّة وقوعها في نفس الأمر ونُدرة وصول خبرها إلى الأذهان، ولذلك رُوعيت تلك النكتة في الشرطيّة الأولى، لِما[1] أنّ صدور الخوارقِ منه عليه السلام خرج بوقوعه مرّة مَخرجَ العادة، فانصرفت النفس عن ترقّبه إلى ترقّب أحوال موسى عليه السلام، هل يُحافِظ على مراعاة شرطه بموجَب وعده الأكيد عند مشاهدة خارق آخرَ، أو يُسارِع إلى المناقشة كما مرّ في المرّة الأولى؟ فكان المقصود إفادةَ ما صدَر عنه عليه السلام ففُعِل ما فُعِل. ولله درُّ شأن التنزيل.[2]

وأمّا ما قيل مِن أنّ القتل أقبَح والاعتراضَ عليه أدخَلُ فكان جديرًا بأن يُجعَل عُمدة في الكلام فليس مِن دَفْع الشبهة في شيء؛ بل هو مُؤيِّد لها، فإنّ كون القتل أقبَح مِن مبادي قلّة صدوره عن المؤمن العاقل ونُدرةِ وصول خبرِه إلى الأسماع، وذلك ممّا يستدعي / جَعْله مقصودًا بالذات وكونَ الاعتراض عليه أدخَل مِن [٤١١ظ] موجبات كثرة صدوره عن كلّ عاقل، وذلك ممّا لا يقتضي جَعْله كذلك.

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ قيل: معناه أنكَرُ مِن الأوّل، إذ لا يمكن تدارُكه كما يمكن تدارُك الأوّل بالسدّ ونحوه. وقيل: الأمر أعظم مِن النُّكر؛ لأنّ قَتْل نفس واحدة أهون مِن إغراق أهل السفينة.[3]

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٧٥﴾

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ زِيد ﴿لَكَ﴾ لزيادة المكافحة بالعِتاب على رَفْض الوصيّة وقلّة التثبّت والصبر لمّا تكرَّر منه الاشمئزاز والاستنكار ولم يَرعَوِ بالتذكير حتّى زاد في[4] النكير في المرّة الثانية.

---

١ وفي هامش م: خبر "لعلّ".

٢ وفي هامش م: ومَن توهّم أنّ ذلك لِما أنّ خَرْق السفينة لم يتعقّب الركوب وقد تعقّبَ القتلُ لقاء الغلام فقد نأى مِن الحقّ بمراحل. «منه».

٣ القولان في **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٥٤١.

٤ س - في.

﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾

﴿قَالَ﴾ أي: موسى عليه السلام: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ أي: بعد هذه المرّة ﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾، وقُرئ مِن الإفعال،[1] أي: لا تجعلني صاحبك ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ أي: قد أعذرتَ ووجدتَ مِن قِبلي عُذرًا حيث خالفتُك ثلاثَ مرّات. عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «رحِم الله أخي موسى استحيى فقال ذلك، لو لبِث مع صاحبه لأبصَر أعجبَ الأعاجيب».[2]

وقُرئ: "لَدُنِيْ"[3] بتخفيف "النون"، وقُرئ بسكون "الدال"[4] كـ"عَضْد" في "عَضُد".

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ هي أنطاكيةُ.[5] وقيل: أُبُلَّةُ،[6] وهي أبعدُ أرض الله مِن السماء. وقيل: هي برقة.[7] وقيل: بلدة بأندلس.[8] عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم:

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجَحدري والنخَعي، واليماني وسهل بن حمّاد عن أبي عمرو. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٤؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٢.

٢ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٥/٣٤٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/١٩٢؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٥٤١. وانظر لتفصيل تخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢/٣٠٥-٣٠٦.

٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٣.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي ليلى والحسين والجُعفي عن أبي بكر عن عاصم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٢.

٥ أنطاكية: مدينة تاريخيّة تقع على الضفّة اليسرى لنهر العاصي على بعد ٣٠ كم مِن شاطئ البحر المتوسّط في محافظة هتاي التركيّة. وانظر لِما قيل فيها: معجم البلدان للحموي، ١/٢٦٦.

٦ مرويّ عن محمّد بن سيرين في جامع البيان للطبري، ١٥/٣٤٧؛ وبلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٤١. | الأُبُلَّة: بلدة على شاطئ دجلة البَصرة العظمى، في زاوية الخليج الذي يدخل إلى البَصرة، وهي أقدم مِن البصرة. وهي مِن أجمل البلاد ونهرها مِن جِنان الدنيا المذكورة عند القدماء. انظر: معجم البلدان للحموي، ١/٧٧.

٧ بَرقَة: بفتح الباء والقاف، اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندريّة وإفريقيّة، واسم مدينتها انطابلس، فيها فواكه وخيرات كثيرة. انظر: معجم البلدان للحموي، ١/٣٨٩-٣٩٠.

٨ القولان في المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٣/٥٣٣.

«كانوا أهلَ قرية لئامًا».[١] وقيل: شرُّ القرى التي لا يضاف فيها الضيف ولا يُعرف لابن السبيل حقُّه.[٢]

وقوله تعالى: ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾ في محلّ الجرّ على أنّه صفةٌ لـ﴿قَرْيَةٍ﴾، ولعلّ العدولَ عن استطعامهم على أن يكون صفة لـ"الأهل" لزيادة تشنيعهم على سوء صنيعهم، فإنّ الإباء مِن الضيافة وهم أهلها قاطنون بها أقبَحُ وأشنَعُ. «رُوي أنّهما طافا في القرية فاستطعماهم فلم يطعموهما واستضافاهم»[٣] ﴿فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ بالتشديد، وقُرئ بالتخفيف مِن الإضافة،[٤] يقال: "ضافه" إذا كان له ضيفًا، و"أضافه وضيَّفه" أنزَله وجعله ضيفًا له. وحقيقةُ "ضاف" مالَ إليه مِن "ضاف السهمُ عن الغرَض"، / ونظيرُه "زاره" مِن الازورار. [٤١٢و]

﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ أي: يداني أن يسقُط، فاستُعيرت الإرادةُ للمشارفة للدلالة على المبالغة في ذلك. والانقضاض: الإسراعُ في السقوط وهو "انفعال" مِن القضّ، يقال: قضضتُه فانقضّ، ومنه انقضاض الطير والكوكب لسقوطه بسرعة. وقيل: هو "افْعِلال" مِن النقض كـ"احمرّ"[٥] مِن الحُمرة.[٦] وقُرئ: "أَنْ يُنْقَضَ"[٧] مِن النَّقْض، و"أَنْ يَنْقَاصَ"[٨] مِن "انقاصَت السنّ" إذا انشقّت طولًا. ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ قيل: مسَحه بيده فقام. وقيل: نقَضه وبناه. وقيل: أقامه بعمود عمَده به. قيل: كان سَمكُه مائة ذراع.[٩]

﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ تحريضًا له على أَخْذ الجُعْل لينتعشا به أو تعريضًا بأنّه فضول لِما في ﴿لَوْ﴾ مِن النفي، كأنّه لمّا رأى الحِرمان ومِساس الحاجة

---

١ بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ١٩٣/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٤١/٢.

٢ مَرويّ عن قتادة في جامع البيان للطبري، ٣٤٧/١٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٩٣/٥.

٣ معالم التنزيل للبغوي، ١٩٣/٥.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جُبير وأبي رَزين وأبي رجاء والأعمش وشِبل وابن الزُّبير ومجاهد والمفضّل والزّعفراني وابن مُحيصن وأبان. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٤؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٢؛ المغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ١١٧٦.

٥ س: احمرار.

٦ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٢/٢.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وأُبيّ والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٣؛ المغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ١١٧٧.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ وعكرمة وابن يعمُر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٣.

٩ هذه الأقوال الأربعة في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٢/٢.

واشتغاله بما لا يعنيه لم يتمالك الصبر. و"اتّخذ" افتعَل مِن "تخِذ" بمعنى "أخذ"، كـ"اتّبع" مِن "تبِع" وليس مِن "الأخذ" عند البصريّين. وقُرئ: "لَتَخِذْتَ"،[1] أي: لأخذتَ، وقُرئ بإدغام "الذال" في "التاء".[2]

﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾

﴿قَالَ﴾ أي: الخَضِر عليه السلام: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ على إضافة المصدر إلى الظرف اتِّساعًا، وقد قُرئ على الأصل،[3] والمشارُ إليه إمّا نفس الفِراق كما في "هذا أخوك"، أو الوقت الحاضر، أي: هذا الوقت وقت فراق بيني وبينك، أو السؤال الثالث، أي: هذا سبب ذلك الفراق حسبما هو الموعود.

﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ "السين" للتأكيد لعدم تراخي التنبئة ﴿بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ التأويل: رَجْع الشيء إلى مآله، والمراد به ههنا المآل والعاقبة، إذ هو المنبَّأ به دون التأويل، وهو خلاص السفينة مِن اليد العادِيَة، وخلاصُ أبوَي الغلام مِن شرّه مع الفوز بالبدل الأحسن، واستخراجُ اليتيمين للكنز. وفي جَعْل صلة الموصول عدمَ استطاعة / موسى عليه السلام للصبر دون أن يقال: "بتأويل ما فعلتُ" أو "بتأويل ما رأيتَ" ونحوهما نوعُ تعريضٍ به عليه السلام وعتاب. [٤١٢ظ]

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ﴾ التي خرقتُها ﴿فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ﴾ لضعفاءَ لا يقدرون على مدافعة الظَّلَمة. وقيل: كانت لعشرة إخوة، خمسةٌ منهم زَمْنى وخمسةٌ ﴿يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾،[4] وإسنادُ العمل إلى الكلّ حينئذ إنّما هو بطريق التغليب، أو لأنّ عمل الوكلاء بمنزلة عدم الموكِّلين. ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أي: أجعلها ذاتَ عيب.

---

١ قرأ بها أبو عمرو وابن كثير ويعقوب. **النشر** لابن الجزري، ٢/٣١٤.

٢ قرأ بها أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف. **النشر** لابن الجزري، ٢/١٦.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وابن أبي عبلة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٩٣.

٤ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٥٤٣.

﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ أي: أمامَهم، وقد قُرئ به،[1] أو خلفَهم، وكان رجوعُهم عليه لا محالةَ، واسمه جُلَندى بن كركر. وقيل: منولة بن جلندى الأزْدي.

﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ أي: صالحة، وقد قُرئ كذلك،[2] ﴿غَصْبًا﴾ مِن أصحابها. وانتصابه على أنّه مصدر مبيّن لنوع الأخذ، ولعلّ تفريعَ إرادة تعييب السفينةِ على مَسكَنة أصحابها قبل بيان خوف الغَصْب مع أن مدارَها كلا الأمرين، للاعتناء بشأنها، إذ هي المحتاجة إلى التأويل، وللإيذان بأنّ الأقوى في المداريّة هو الأمر الأوّل، ولذلك لا يُبالى بتخليص سُفن سائر الناس مع تحقّق خوف الغَصْب في حقّهم أيضًا، ولأنّ في التأخير فصلًا بين السفينة وضميرها مع توهّم رجوعه إلى الأقرب.

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ﴾ الذي قتلتُه ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ لم يصرِّح بكفرانه أو بكُفره إشعارًا بعدم الحاجة إلى الذِّكر لظهوره ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا﴾ فخِفنا أن يُغشيَ الوالدَين المؤمنَين ﴿طُغْيَٰنًا﴾ عليهما ﴿وَكُفْرًا﴾ لنعمتهما بعقوقه وسوء صنيعه ويُلحِق بهما شرًّا وبلاء، أو يُقرَنَ بإيمانهما طغيانه وكفره فيجتمع في بيت واحد مؤمنان وطاغٍ كافر، أو يُعدِيَهما بدائه ويُضلّهما بضلاله فيرتدّا بسببه.

وإنّما خشيَ الخَضِر عليه السلام منه ذلك لأنّ الله سبحانه أعلمه بحاله وأطلعه على سِرّ أمرِه. وقُرئ: "فَخَافَ رَبُّكَ"،[3] أي: كرِه سبحانه كراهةَ مَن خاف / سوء عاقبة الأمر فغيّره، ويجوز أن يكون القراءةُ المشهورة على الحكاية [٤١٣و] بمعنى "فكرِهنا"، كقوله تعالى: ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ [مريم، ١٩/١٩].

﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾

﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ﴾ بأن يرزُقهما بدلَه ولدًا خيرًا ﴿مِنْهُ﴾.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ وعثمان وابن عبّاس وقتادة وحُميد وأبي جعفر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٣؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١١٧٩.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ وعثمان وابن عبّاس وقتادة وحُميد وأبي جعفر. المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١١٧٩.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٤.

وفي التعرّض لعنوان الربوبيّة والإضافة إليهما ما لا يخفى مِن الدلالة على إرادة وصول الخير إليهما. ﴿زَكَوٰةً﴾ طهارةً مِن الذنوب والأخلاق الرديئة، ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أي: رحمةً وعطفًا.

قيل: وُلدت لهما جارية تزوّجها نبيّ فولدت نبيًّا هدى[1] الله تعالى على يده أمّة مِن الأمَم. وقيل: ولدت سبعين نبيًّا. وقيل: أبدلهما ابنًا مؤمنًا مثلَهما.[2] وقُرئ: "يُبَدِّلَهُمَا"[3] بالتشديد، وقرئ: "رُحُمًا"[4] بضمّ الحاء أيضًا، وانتصابه على التمييز مثل ﴿زَكَوٰةً﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ﴾ المعهودُ ﴿فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ هي القرية المذكورة فيما سبق، ولعلّ التعبيرَ عنها بالمدينة لإظهار نوع اعتدادٍ بها باعتداد ما فيها مِن اليتيمين وأبيهما الصالح. قيل: اسماهما أصرَم وصريم واسم المقتول جيسون.[5]

﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ مِن فضّة وذهب، كما رُوي مرفوعًا.[6] والذمُّ[7] على كنزهما في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ [التوبة، ٣٤/٩] لمَن[8] لا يؤدّي زكاتهما وسائر حقوقهما. وقيل: كان لوحًا مِن ذهب مكتوبًا فيه: عجبتُ لمَن يؤمن بالقدر كيف يحزَن؟ وعجبتُ لمَن يؤمن بالرزق كيف يتعَب؟ وعجبتُ لمَن يؤمن بالموت كيف يفرح؟ وعجبت لمَن يؤمن بالحساب كيف يغفُل؟

---

١ س + أي.

٢ الأقوال الثلاثة في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٤/٢.

٣ قرأ بها نافع وأبو عمرو وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣١٤/٢.

٤ قرأ بها ابن عامر وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢١٦/٢.

٥ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٤/٢.

٦ سنن الترمذي، ٣٧٦/٥ (٣١٥٢)؛ المعجم الصغير للطبراني، ١٧٤/٢ (٩٧٧)؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٩٥/٥.

٧ وفي هامش م: مبتدأ.

٨ وفي هامش م: خبر.

وعجبت لمَن يعرِف الدنيا وتقلُّبَها بأهلها كيف يطمئنّ إليها؟ لا إله إلّا الله محمّد رسول الله.[١] وقيل: صحفٌ فيها عِلم.[٢]

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ تنبيه على أنّ سعيَه في ذلك / كان لصلاحه. قيل: كان بينهما وبين الأب الذي حُفظا فيه سبعةُ آباء.[٣] [٤١٣ظ]

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ أي: مالكُك ومدبِّر أمورك، ففي إضافة الربّ إلى ضمير موسى عليه السلام دون ضميرهما تنبيه له عليه السلام على تحتّم كمال الانقياد والاستسلام لإرادته سبحانه ووجوبِ الاحتراز عن المناقشة فيما وقع بحسبها مِن الأمور المذكورة. ﴿أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ أي: حُلُمَهما وكمالَ رأيهما ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ مِن تحت الجدار، ولولا أنّي أقمته لانقضّ وخرج الكنز مِن تحته قبل اقتدارهما على حفظ المال وتنميته وضاع بالكلّيّة.

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ مصدر في موقع الحال، أي: مرحومَين منه عزّ وجلّ، أو مفعول له، أو مصدر مؤكِّد لـ﴿أَرَادَ﴾، فإنّ إرادة الخير رحمة. وقيل: متعلِّق بمضمَر، أي: فعلتُ ما فعلتُ مِن الأمور التي شاهدتَها رحمة مِن ربّك،[٤] ويعضُده إضافة الربّ إلى ضمير المخاطَب[٥] دون ضميرهما، فيكون قوله عزّ وعلا: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ أي: عن رأيي واجتهادي تأكيدًا لذلك.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى العواقب المنظومةِ في سِلك البيان، وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد درجتها في الفخامة. ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع﴾ أي: لم تستطع، فحُذف "التاء" للتخفيف. ﴿عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ مِن الأمور التي رأيته أي: مآلُه وعاقبتُه فيكون إنجازًا للتنبئة الموعودة، أو إلى البيان نفسه فيكون التأويل بمعناه، وعلى كلّ حال فهو فذلكة لِما تقدَّم، وفي جعل الصلة عينَ ما مرّ[٦] تكريرٌ للنكير وتشديد للعِتاب.

---

١ مَرويّ عن ابن عبّاس والحسن بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٥/٣٦٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/١٩٦.

٢ مَرويّ عن ابن عبّاس وسعيد بن جُبير ومجاهد في جامع البيان للطبري، ١٥/٣٦٢-٣٦٣؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/١٩٦.

٣ القول في معالم التنزيل للبغوي، ٥/١٩٦؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٥٤٤.

٤ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٥٢.

٥ وفي هامش م: حسبما وقفتَ عليه مِن السرّ. «منه».

٦ وفي هامش م: مِن عدم استطاعة موسى عليه السلام للصبر. «منه».

تنبيه: اختلفوا في حياة الخَضِر، فقيل: إنّه حيّ، وسببُه أنّه كان على مقدّمة ذي القرنين، فلمّا دخل الظلماتِ أصاب الخَضِر عينَ الحياة فنزل واغتسل منها وشرب مِن مائها وأخطأ ذو القرنين الطريق فعاد. قالوا: وإلياس أيضًا في الحياة يلتقيان كلّ سنة بالموسم. وقيل: إنّه ميّت، لِما رُوي أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم صلّى العشاء ذاتَ ليلة، ثم قال: «أرأيتَكم ليلتَكم هذه، فإنّ رأس مائة سنة منها لا يبقَى ممّن هو اليوم على ظهر الأرض أحد»،[1] ولو كان الخَضِر حينئذ حيًّا لَما عاش بعد مائة عام.[2] رُوي أنّ موسى عليه السلام لمّا أراد أن يفارقه، قال له: «أوصِني»، قال: «لا تطلب العلمَ لتحدّث به واطلبْه لتعمَل به».[3]

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾

[٤١٤و] / ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ هم اليهود سألوه عليه السلام[4] على وجه الامتحان، أو سأله قريشٌ بتلقينهم. وصيغة الاستقبال للدلالة على استمرارهم على ذلك إلى ورود الجواب. وهو ذو القرنين الأكبر واسمه الإسكندر بن فيلقوسَ اليوناني، وقال ابن إسحاقَ: اسمه مَرزُبان بن مَرْدِبهْ مِن ولد يافث بن نوح عليه السلام وكان أسودَ.[5] وقيل: اسمُه عبد الله بن الضحّاك. وقيل: مصعبُ بن عبد الله بن فينانَ بن منصور بن عبد الله بن الآزر بن عون بن زيد بن كهلانَ بن سبأ بن يعرُبَ بن قحطانَ.[6] وقال السهيليّ: قيل: إنّ اسمه مَرْزُبان بن مُدرِكة، ذكره ابن هشام وهو أوّل التبابِعة.[7] وقيل: إنّه أفريدون بن النعمان الذي قتل الضحّاك.[8]

---

١ صحيح البخاري، ١/٣٤ (١١٦)؛ صحيح مسلم، ٤/١٩٦٥ (٢٥٣٧)؛ معالم التنزيل للبغوي، ٥/١٩٧.

٢ هذان القولان في الخَضِر مع الاستدلال المذكور جاءا بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٥/١٩٧.

٣ معالم التنزيل للبغوي، ٥/١٩٧.

٤ ط س - عليه السلام.

٥ القولان في معالم التنزيل للبغوي، ٥/١٩٨. وانظر: اللباب لابن عادل، ١٢/٥٥٤.

٦ القولان في البداية والنهاية لابن كثير، ٢/٥٣٩؛ واللباب لابن عادل، ١٢/٥٥٥. وأوّلهما في الرَّوض الأنف للسُّهيلي، ٣/١٨٠.

٧ التبابِعة: هم مِن ولد صيفي بن سبأ الأصغر بن كعب بن زيد، وهم مِن ملوك اليمن. انظر: جمهرة أنساب العرب لابن حزم، ١/٤٣٨؛ ونهاية الأرب للقلقشندي، ١/٤٢٥.

٨ انظر: الرَّوض الأنف للسُّهيلي، ٣/١٧٨-١٧٩. والكلام بلفظ قريب عن السُّهيلي في البداية والنهاية لابن كثير، ٢/٥٤٠-٥٤١؛ واللباب لابن عادل، ١٢/٥٥٥.

وذكر أبو الريحان البيروتي[١] في كتابه المسمى بـ**الآثار الباقية عن القرون الخالية** أنّ ذا القرنين هو أبو كرِب سميّ بن عيرين بن أقريقيس الحِمْيري وأنّ مُلكَه بلغ مشارقَ الأرض ومغاربَها وهو الذي افتخر به التُّبّع اليماني حيث قال:

قد كان ذو القرنين جدّي مسلمًا ... مَلِكًا علا في الأرض غيرَ مفنَّدِ
بلَغ المَشارق والمَغارب يبتغي ... أسبابَ أمر مِن حكيم مُرشدِ[٢]

وجعلَ هذا القولَ أقربَ لأن الأذواءَ كانوا مِن اليمن كذي المنار وذي نواس وذي النون وذي رُعَين وذي يزَن وذي جَدَن.[٣]

قال الإمام الرازي: والأوّل هو الأظهر؛ لأنّ مَن بلغ مُلكُه مِن السَّعة والقوّة إلى الغاية التي نطق بها التنزيل الجليل إنّما هو الإسكندر اليوناني كما تشهد به كتب التواريخ. يُروى أنّه لمّا مات أبوه جَمع مُلكَ الرُّوم بعد أن كان / طوائفَ، [٤١٤ظ] ثمّ قصَد ملوك العرب وقهَرهم، ثمّ أمعن حتّى انتهى إلى البحر الأخضر،[٤] ثم عاد إلى مصرَ فبنى الإسكندريّة وسمّاها باسمه، ثمّ دخَل الشام وقصد بني إسرائيلَ وورد بيتَ المَقدِس وذبح في مذبَحه، ثمّ انعطف إلى إرمينيّةَ وبابِ الأبواب[٥]

---

١ هو محمّد بن أحمد الخوارزمي البيروني، أبو الريحان (ت. ٤٤٠هـ/١٠٤٧م). فيلسوف رياضي مؤرّخ مِن أهل خوارزم، أقام في الهند سبع سنين ومات في بلده. اطّلع على فلسفة اليونانيين والهنود. وعلت شهرته وارتفعت منزلته عند ملوك عصره. صنّف كتبًا متقنة منها: **الآثار الباقية في القرون الخالية**، و**الاستيعاب في صفة الأسطرلاب**، و**تاريخ الأمم الشرقية**. انظر: **معجم الأدباء** للحمَوي، ٢٣٣٠/٥؛ و**الأعلام** للزركلي، ٣١٤/٥.

٢ البيتان لأبي كرِب أسعد الكامل بن مَلْكِيكرب بن تُبّع الأكبر الحِميري في شعراء حِمير، ١١٠/٣، مع بعض اختلاف في الرِّواية؛ وهما لبعض الحميريّين في **البداية والنهاية** لابن كثير، ٥٤٠/٢؛ و**اللباب** لابن عادل، ٥٥٤/١٢.

٣ انظر: **الآثار الباقية** للبيروني، ص ٤٧. والكلام بلفظ قريب عن البيروني في **تفسير الرازي**، ٤٩٤/٢١؛ و**اللباب** لابن عادل، ٥٥٤/١٢.

٤ البحر الأخضر: هو محيط بالدنيا جميعها كإحاطة الهالة بالقمر، ويخرج منه شعبتان إحداهما بالمشرق وهي بحر الهند والصين وفارس واليمن والزنج، والأخرى في المغرب تخرج مِن عند سلا فتمرّ بالزقاق الذي بين البرّ الأعظم مِن بلاد بربر المغرب وجزيرة الأندلس، وتمرّ بأفريقيّة إلى أرض مصر والشام إلى القسطنطينيّة. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ٣٤٤/١.

٥ باب الأبواب: هي مدينة على بحر طبرستان؛ وهو بحر الخَزَر، وعلى المدينة سور مِن الحجارة ممتدّ مِن الجبل. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ٣٠٣/١.

ودان له العراقيّون والقِبط والبربر،[١] ثمّ توجَّه نحو دارا بن دارا وهزمه مرارًا إلى أن قتله صاحب حرسه، واستولى على ممالك الفُرس وقصدَ الهِند وفتحه وبنى مدينة سرنديبَ[٢] وغيرَها مِن المُدن العظامِ، ثم قصَد الصين وغزا الأمَم البعيدة ورجع إلى خراسانَ[٣] وبنى بها مدائنَ كثيرة، ورجع إلى العراق ومرض بشهرزورَ[٤] ومات. انتهى كلام الإمام.[٥]

ورُوي أنّ أهل النجوم قالوا له: «إنّك لا تموت إلّا على أرض مِن حديد وتحت سماء مِن خشب»، وكان يدفِن كنزَ كلّ بلدة فيها ويكتب ذلك بصفته وموضعه، فبلغ بابل فرعَف وسقَط عن دابّته، فبُسطت له دروع فنام عليها، فآذته الشمس فأظلُّوه بتُرس، فنظر فقال: «هذه أرض مِن حديد وسماء مِن خشب»، فأيقَن بالموت، فمات وهو ابن ألف وستّمائة سنةٍ.[٦] وقيل: ثلاثة آلاف سنةٍ. قال ابن كثير: وهذا غريب.[٧] وأغربُ منه: ما قاله ابن عساكر[٨] مِن أنّه بلغني أنّه عاش ستًّا وثلاثين سنةً أو اثنتين وثلاثين سنةً، وأنّه كان بعد داود وسليمان عليهما السلام.[٩] فإنّ ذلك لا ينطبق إلّا على ذي القرنين الثاني كما سنذكره.

---

١ البربر: شعب أكثره قبائل تسكن الجبال في شمال إفريقيّة. قيل: مختلف في نسبتهم للعرب، قيل مِن العرب، وقيل: مِن غسّان وغيرهم، وقيل: هم مِن حمير ومصر، وقيل: أخلاط مِن كنعان والعماليق. انظر: **قلائد الجمان** للقلقشندي، ٣٤/١.

٢ سَرَنْديب: هي جزيرةٌ كبيرةٌ في المحيط الهندي جنوب الهند، أطلق عليها العرب قديمًا اسم جزيرة سرنديب، وعُرِفت أيضًا باسم سيلان، وانظر فيها: **معجم البلدان** للحموي، ٢١٥/٣.

٣ خُراسان: بلاد واسعة أوّل حدودها ممّا يلي العراق أَزَاذْوار قصبة جوَين وبَيهق، وآخرُ حدودها ممّا يلي الهند طخارستان وغزنة وسجستان وكرمان، وليس ذلك منها وإنّما هي أطراف حدودها، وتشتمل على أمّهات مِن البلاد منها نيسابور وهَراة ومرو وأبيوَرد وسرخس وغيرها وما يتخلّل ذلك مِن المدن التي دون نهر جيحون. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ٣٥٠/٢.

٤ شهرزور: هي كورة واسعة في الجبال بين إربل وهمَذان. أحدثها زُور بن الضحّاك، ومعنى "شهر" بالفارسيّة: المدينة. وأهل نواحيها كلّهم أكراد. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ٣٧٥/٣.

٥ انظر: **تفسير الرازي**، ٤٩٣/٢١-٤٩٤.

٦ انظر: **اللباب** لابن عادل، ٥٥٤/١٢.

٧ انظر: **البداية والنهاية** لابن كثير، ٥٤٤/٢-٥٤٦.

٨ هو عليّ بن الحسن بن هبة الله أبو القاسم (ت. ٥٧١هـ/١١٧٦م). ثقة الدين المعروف بابن عساكر الدمشقي، المؤرّخ الحافظ الرحّالة الشافعي. مولده ووفاته في دمشق. وكان محدّث الديار الشاميّة، مِن أبرز كتبه: **تاريخ دمشق**، **والإشراف على معرفة الأطراف**، **ومعجم الصحابة**. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٤٠٥/٢١؛ **والأعلام** للزركلي، ٢٧٣/٤.

٩ انظر: **تاريخ دمشق** لابن عساكر، ٣٤٦/١٧.

قلتُ: وكذا ما ذكَره الإمام مِن قَصْد بني إسرائيلَ وورودِ بيت المَقدِس / [١] [٤١٥و] والذبحِ في مذبَحه، فإنّه ممّا لا يكاد يتأتّى نسبتُه إلى الأوّل.[٢]

واختُلف في نبوّته بعد الاتّفاق على إسلامه وولايته. فقيل: كان نبيًّا لقوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾،[٣] وظاهر أنّه متناول للتمكين في الدِّين وكمالُه بالنبوّة، ولقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾،[٤] ومِن جملة الأشياء النبوّةُ، ولقوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾[٥] ونحوِ ذلك. وقيل: كان مَلَكًا، لِما رُوي أنّ عمرَ رضي الله عنه سمع رجلًا يقول لآخر: يا ذا القرنين، فقال: اللّٰهمّ غُفرًا، أمَا رضِيتم أن تتسمَّوا بأسماء الأنبياء حتّى تسمَّيتُم بأسماء الملائكة.[٦]

قال ابن كثير: والصحيح أنّه ما كان نبيًّا ولا مَلَكًا، وإنّما كان مَلِكًا صالحًا عادلًا مَلَك الأقاليم وقهَر أهلها مِن الملوك وغيرهم ودانت له البلاد، وأنّه كان داعيًا إلى الله تعالى سائرًا في الخلق بالمَعْدَلة التامّة والسلطان المؤيَّد المنصور، وكان الخَضِر على مقدّمة جيشه بمنزلة المستشار الذي هو مِن المَلِك بمنزلة الوزير.

وقد ذكَر الأزرقي[٧] وغيره أنّه أسلَم على يدَيْ إبراهيمَ الخليل عليه السلام فطاف معه بالكعبة هو وإسماعيلُ. ورُوي أنه حجّ ماشيًا فلمّا سمِع إبراهيمُ عليه السلام بقدومه تلقّاه ودعا له وأوصاه بوصايا، ويقال: إنّه أُتيَ بفرس ليركب فقال: لا أركَب في بلد فيه الخليل، فعند ذلك سُخِّر له السحاب وطُويَ له الأسباب وبشّره إبراهيمُ عليه السلام[٨] بذلك فكانت السحاب تحمله وعساكرَه وجميعَ آلاتهم إذا أرادوا غزوة قوم.

---

١ هنا ينتهي ما وقع مِن اضطراب الألواح في نسخة المؤلّف.

٢ وفي هامش م: وستعرف أنّ مَن بنى الإسكندريّة وقتل دارا أيضًا هو الثاني. «منه».

٣ في الآية الآتية.

٤ في الآية الآتية.

٥ الكهف، ٨٦/١٨.

٦ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٤٥/٢؛ والبداية والنهاية لابن كثير، ٥٣٧/٢.

٧ هو محمّد بن عبد الله بن أحمد بن محمّد بن الوليد بن عقبة بن الأزرق الأزرقي، أبو الوليد (ت. نحو ٢٥٠هـ/ ونحو ٨٦٥م)، مؤرّخ مِن أهل مكّة، يمانيّ الأصل، له مِن المصنّفات أخبار مكّة وما جاء فيها مِن الآثار. انظر: الأعلام للزركلي، ٢٢٢/٦.

٨ س - عليه السلام.

وقال أبو الطُّفيل:[١] سُئل عنه عليّ كرَّم الله وجهه أكان نبيًّا أم مَلِكًا؟ فقال: لم يكن نبيًّا ولا مَلِكًا لكن كان عبدًا أحبّ الله فأحبّه وناصَح الله فناصَحه سُخِّر له السحاب ومُدّ له الأسباب.[٢]

[٤٢٦ظ] / واختُلف في وجه تسميته بذي القَرنين. فقيل: لأنّه بلغ قَرنَي الشمس مَشرِقَها ومَغربَها. وقيل: لأنّه مَلَك الرُّوم وفارسَ، وقيل: الرُّومَ والتُّركَ. وقيل: لأنّه كان في رأسه أو في تاجه ما يشبه القَرنين. وقيل: لأنّه كان له ذؤابتان. وقيل: لأنّه كانت صفحتا رأسه مِن النُّحاس.[٣] وقيل: لأنّه دعا الناس إلى الله عزّ وجلّ فضُرِب بقَرنه الأيمن فمات، ثمّ بعثه الله تعالى فضُرِب بقرنه الأيسر فمات، ثمّ بعثه الله تعالى.[٤] وقيل: لأنّه رأى في منامه أنّه صعِد الفَلَك فأخذ بقَرنَي الشمس. وقيل: لأنّه انقرض في عهده قَرنان. وقيل: لأنّه سُخِّر له النور والظُّلمة فإذا سرَى يهديه النور مِن أمامه وتحُوطه الظُّلمة مِن ورائه. وقيل: لُقِّب به لشجاعته.[٥]

هذا وأمّا ذو القرنين الثاني فقد قال ابن كثير: إنّه الإسكندر بن فيليسَ بن مصريمَ بن هرمسَ بنِ ميطونَ بن رومي بن ليطى بن يونان بن يافثَ بن نونة بن شرخونَ بن روميةَ بن ثونط بن برقيل[٦] بن رومي بن الأصفرِ بن العنزِ بن العيصِ بن إسحاقَ بن إبراهيمَ الخليل عليهما السلام. كذا نسبه ابن العساكرَ:[٧] المقدوني

---

١ هو عامر بن واثلة بن عبد الله بن عمرو الليثي الكناني القرشي، أبو الطفيل (ت. ١٠٠هـ/٧١٨م). شاعر كنانة وأحد فرسانها ومِن ذوي السيادة، وُلد يوم وقعة أحد ومات بمكّة، وهو آخر مَن مات مِن الصحابة رضوان الله عليهم، وعاش إلى أيّام معاوية وما بعدها. روى عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم تسعة أحاديث. انظر: **الاستيعاب** لابن عبد البرّ، ١٦٩٦/٤؛ **والأعلام** للزركلي، ٢٥٥/٢-٢٥٦.

٢ إلى هنا ينتهي النقل بلفظ قريب عن **البداية والنهاية** لابن كثير، ٥٣٧/٢-٥٣٩؛ وبعضه في **تفسير ابن كثير**، ١٨٩/٥. وحديث أبي الطُّفيل بلفظ قريب في **جامع البيان** للطبري، ٣٧٠/١٥.

٣ هذه الأقوال الستّة في **الكشّاف** للزمخشري، ٥٤٥/٢. وبعضها في **جامع البيان** للطبري، ٣٧٠/١٥-٣٧١؛ **ومعالم التنزيل** للبغوي، ١٩٨/٥. وأكثرها في **البداية والنهاية** لابن كثير، ٥٣٨/٢؛ **وتفسير ابن كثير**، ١٨٩/٥.

٤ مَرويّ عن أبي الطُّفيل عن عليّ في **جامع البيان** للطبري، ٣٧٠/١٥؛ **ومعالم التنزيل** للبغوي، ١٩٨/٥؛ **والبداية والنهاية** لابن كثير، ٥٣٩/٢؛ **وتفسير ابن كثير**، ١٨٩/٥.

٥ أكثر هذه الأقوال في **الكشّاف** للزمخشري، ٥٤٥/٢.

٦ م ط س: نوفيل [صُحِّح في هامش م].

٧ س: عساكر.

اليوناني المصري باني الإسكندريّة الذي يؤرِّخ بأيّامه الروم، وكان متأخِّرًا عن الأوّل بدهر طويل أكثرَ مِن ألفَي سَنةٍ، كان هذا قبل المسيح عليه السلام بنحو مِن ثلاثمائة سنةٍ وكان وزيره أرسطاطاليس الفيلسوفَ، وهو الذي قتل دارا بن دارا، وأذلّ ملوك الفُرس ووطئ أرضهم.[١]

ثم قال:[٢] وإنّما بيّنا هذا لأنّ كثيرًا مِن الناس يعتقد أنّهما واحدٌ، وأنّ المذكور / في القرآن العظيم هو هذا المتأخِّر فيقع بذلك خطأ كبير وفساد كثير، كيف لا، والأوّل كان عبدًا صالحًا مؤمنًا ومَلِكًا عادلًا وزيرُه الخَضِر عليه السلام، وقد قيل: إنّه كان نبيًّا. وأمّا الثاني فقد كان كافرًا وزيرُه أرسطاطاليس الفيلسوف، وقد كان ما بينهما مِن الزمان أكثرَ مِن ألفَي سنةٍ فأين هذا مِن ذلك؟ انتهى.[٣] [٤٢٧و]

قلتُ: المَقَدُوني نسبة إلى بلدة مِن بلاد الروم غربيَّ دار السلطَنة السنيّة قُسطنطينيّةَ المَحميّة، لا زالَت مشحونة بالشعائر الدينيّة، بينهما مِن المسافة مسيرة خمسةَ عشرَ يومًا أو نحو ذلك عند مدينة سَيروزَ، اسمُها بلغة اليونانيّين مَقَدُونْيَا، كانت سرير مُلك هذا الإسكندر،[٤] وهي اليوم بلقَع لا يقيم بها أحد، ولكن فيها علائمُ تحكي كمال عِظَمها في عهد عُمرانها ونهايةِ شوكة واليها وسلطانِها، ولقد مررتُ بها عند[٥] القُفول عن[٦] بعض المغازي السُّلطانيّة، فعاينتُ فيها مِن تعاجيب الآثار ما فيه عِبرة لأولي الأبصار.[٧]

﴿قُلْ﴾ لهم في الجواب ﴿سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم﴾ أي: سأذكر لكم ﴿مِنْهُ﴾ أي: مِن ذي القرنين ﴿ذِكْرًا﴾ أي: نبأ مذكورًا، وحيث كان ذلك بطريق الوحي المَتلوّ حكايةً عن جهة الله عزّ وجلّ قيل: ﴿سَأَتْلُواْ﴾ في شأنه، أو﴿سَأَتْلُواْ﴾ مِن جهته تعالى ﴿ذِكْرًا﴾ أي: قرآنًا، و"السين" للتأكيد والدلالة على التحقّق المناسب

---

١ انظر: البداية والنهاية لابن كثير، ٢/٥٤١-٥٤٢.

٢ وفي هامش م: ابن كثير.

٣ انظر: البداية والنهاية لابن كثير، ٢/٥٤٢.

٤ وفي هامش م: ومَن نسب إليها ذا القرنين الأكبر، ثمّ استشهد على أنّه مَلَك المَشارق والمَغارب بأبيات التُّبع اليماني فقد أبدع وأغرب. «منه».

٥ س: عن.

٦ ط س: مِن. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، لعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٧ أشيرَ في دراسة هذا التحقيق إلى تلك المغازي وما ذكره المصنّف مِن مشاهدته.

لمقام تأييده عليه السلام وتصديقه بإنجاز وعده، أي: لا أترك التلاوة البتّةَ، كما في قول مَن قال:

سأشكر عَمْرًا إن تراخت منيّتي أيادِيَ لم تُمنَن وإن هي جلَّتِ[1]

لا للدلالة على أنّ التلاوة ستقع فيما يُستقبَل كما قيل، لأنّ هذه الآيةَ ما نزلت بإنفرادها قبل الوحي بتمام القصّة؛ بل موصولة بما بعدها ريثما سألوه عليه السلام عنه وعن الروح / وعن أصحاب الكهف، فقال لهم عليه السلام: «ائتوني غدًا أخبرْكم»،[2] فأبطأ عليه الوحيُ خمسةَ عشرَ يومًا أو أربعين كما ذُكر فيما سلف. [٤٢٧ظ]

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾

وقوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ شروع في تلاوة الذِّكر المعهود حسبما هو الموعود. والتمكين ههنا الإقدار وتمهيد الأسباب، يقال: مكّنه ومكّن له، ومعنى الأوّل جعَله قادرًا وقويًّا، ومعنى الثاني جعَل له قدرة وقوّة، ولتلازمهما في الوجود وتقاربهما في المعنى يُستعمَل كلٌّ منهما في محلّ الآخر كما في قوله عزّ وعلا: ﴿مَكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ [الأنعام، ٦/٦]، أي: جعلناهم قادرين مِن حيث القُوى والأسباب والآلات على أنواع التصرّفات فيها ما لم نجعله لكم مِن القوّة والسَّعة في المال والاستظهارِ بالعَدد والأسباب، فكأنّه قيل: ما لم نُمكِّنكم فيها، أي: ما لم نجعلكم قادرين على ذلك فيها أو مكّنّا لهم في الأرض ما لم نمكِّنْ لكم.

وهكذا إذا كان التمكين مأخوذًا مِن المكان بناءً على توهّم ميمه أصليّة، كما أشيرَ إليه في سورة يوسفَ عليه السلام،[3] والمعنى إنّا جعلنا له مَكِنة وقدرة على التصرّف في الأرض مِن حيث التدبير والرأي والأسباب، حيث سُخِّر له السحاب،

---

[1] مختلف في نسبته: فهو لعبد الله بن الزِّبِير الأسدي في ملحق ديوانه، ص ١٤٢؛ وخزانة الأدب للبغدادي، ٢/٢٦٥؛ وهو له أو لعمرو بن كُمَيل في الحماسة البصرية للبصري، ٢/٤٢١؛ ولإبراهيم الصولي في ديوانه، ص ١٣٠ (ضمن الطرائف الأدبيّة للميمني)؛ والدُّرّ الفريد لابن آيدمر، ٦/٣٨٤؛ وهو لأبي الأسود الدؤلي في ملحق ديوانه، ص ٣٨٨؛ ولمحمّد بن سعيد في رسائل الجاحظ، ١/٣٨؛ ولمحمّد بن سعد الكاتب التميمي في معجم الشعراء للمرزباني، ص ٤٢١.

[2] مضى بتخريجه عند تفسير الكهف، ١٨/٢٣.

[3] في الآية الحادية والعشرين منها.

ومُدّ له في الأسباب، وبُسط له النور، وكان الليل والنهار عليه سواءً، وسُهِّل عليه السير في الأرض، وذُلّلت له طرقها.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ أراده مِن مُهمّات مُلكه ومقاصده المتعلِّقة بسلطانه ﴿سَبَبًا﴾ أي: طريقًا يُوصِله إليه، وهو كلُّ ما يُتوصَّل به إلى المقصود مِن عِلم أو قدرة أو آلة.

﴿فَأَتْبَعَ﴾ بالقَطع، أي: فأراد بلوغَ المغرب فأتبع ﴿سَبَبًا﴾ يُوصِله إليه، ولعلّ قصدَ بلوغ المغرب ابتداءً لمراعاة الحركة الشمسيّة، وقُرئ: "فَاتَّبَعَ"[1] مِن الافتعال، والفرق أنّ الأوّل فيه معنى الإدراك والإسراع دون الثاني.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾﴾

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾ أي: منتهى الأرض مِن جهة المغرِب بحيث لا يتمكّن أحد مِن مجاوزته، ووقف على حافّة البحر المحيط الغربي الذي يقال له أوقيانوس الذي فيه / الجزائر المسمّاة بالخالدات[2] التي هي مبدأ الأطوال على أحد القولين، ﴿وَجَدَهَا﴾ أي: الشمس ﴿تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أي: ذات حَمْأة: وهي الطين الأسود مِن "حمِئت البئر" إذا كثرت حَمْأتها، وقُرئ: "حَامِيَةٍ"،[3] أي: حارّة. [٤٢٨و]

رُوي أنّ معاويةَ رضي الله عنه قرأ: "حَامِيَةٍ" وعنده ابن عبّاس رضي الله عنهما فقال: ﴿حَمِئَةٍ﴾، فقال معاويةُ لعبد الله بن عمرو بن العاص:[4] «كيف تقرأ؟» قال:

---

١ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٤.

٢ الخالدات: هي الجزائر الخالدات، هي ستّ جزائر واغلة في البحر المحيط، وهي ببلاد المغرب، وقيل: بإزاء طنجة في المحيط، وقيل: هي جزائر السعادة؛ لأنّ فيها أصناف الفواكه العجيبة الطيّبة، وأرضها تحمل الزرع مكان العشب وأصناف الرياحين العطرة. انظر: معجم البلدان للحموي، ٢/١٣٢.

٣ قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي وشعبة وأبو جعفر وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٤.

عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤيّ القرشي السهمي (ت. ٦٥هـ/٦٨٤م). مِن قريش مِن أهل مكّة، صحابي عالم فاضل حافظ مِن النسّاك، كان يكتب في الجاهليّة ويحسن السريانيّة، وأسلم قبل أبيه، واستأذن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أن يكتب ما يسمع منه فأذن له، »

«كما يقرأ أمير المؤمنين»، ثمّ وجّه إلى كعب الأحبار: «كيف تجد الشمس تغرب؟» قال: «في ماء وطين»، ورُوي "في ثَأْط"[1] فوافَق قول ابن عبّاس رضي الله عنهما.[2]

وليس بينهما منافاة قطعيّة لجواز كون العين جامعة بين الوصفين وكون الياء في الثانية منقلبة مِن "الهمزة" لانكسار ما قبلها. وأمّا رجوع معاويةَ إلى قول ابن عبّاس رضي الله عنهما بما سمعه مِن كعب مع أنّ قراءته أيضًا مسموعة قطعًا،[3] فلكون قراءةِ ابن عبّاس قطعيّة في مدلولها وقراءتِه محتمَلةً.

ولعلّه لمّا بلغ ساحل المحيط رآها كذلك؛ إذ ليس في مطمَح بصره غيرُ الماء كما يلوِّح به قوله تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ﴾.

﴿وَوَجَدَ عِندَهَا﴾ عند تلك العين ﴿قَوْمًا﴾ قيل: كان لباسهم جلود الوحوش وطعامُهم ما لفَظه البحر، وكانوا كفّارًا فخيّره الله جلّ ذِكره بين أن يُعذّبهم بالقتل وأن يدعوَهم إلى الإيمان وذلك قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ بالقتل مِن أوّل الأمر ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ أي: أمرًا ذا حُسن على حذف المضاف أو على طريقة إطلاق المصدر على موصوفهَ مبالغة، وذلك بالدعوة إلى الإسلام والإرشاد إلى الشرائع.

ومحلُّ ﴿أَن﴾ مع صلته إمّا الرفع على الابتداء أو الخبريّة، وإمّا النصب على المفعوليّة، أي: إمّا تعذيبك واقع،[4] أو إمّا أمرك تعذيبك،[5] أو إمّا تفعَل تعذيبَك،[6] وهكذا الحال في "الاتّخاذ".[7] ومَن لم يقل بنبوّته قال: كان[8] الخطاب بواسطة

ﻫ وكان كثير العبادة، وكان يشهد الحروب والغزوات ويضرب بسيفين وحمل راية أبيه يوم اليرموك، وشهد صفّين مع معاوية، وعمي في آخر حياته، ومات بمكّة، وقيل: في مصر. انظر: الاستيعاب لابن عبد البرّ، ٣/٩٥٦-٩٥٩؛ والأعلام للزركلي، ٤/١١١.

١ وفي هامش م: جمع ثأطة: وهي الحَمْأة. «منه».

٢ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٥/٣٧٥-٣٧٦؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٥٤٥-٥٤٦.

٣ وفي هامش م: وليس مدار الاختلاف هو السماع وإلّا لَما سأل كعبًا سؤاله المذكور. «منه».

٤ وفي هامش م: على الأوّل.

٥ وفي هامش م: على الثاني.

٦ وفي هامش م: على الثالث.

٧ وفي هامش م: هذا ما قالوا. والأظهر هو الرفع على الخبريّة، بتقدير المقدَّر قبل ﴿إِمَّا﴾، أي: أمرك إمّا تعذيبُك لهم وإمّا إحسانُك إليهم، أو النصبُ على المفعوليّة، أي: اختر إمّا تعذيبَك لهم وإمّا إحسانَك إليهم. «منه».

٨ س + ذلك.

نبيّ في ذلك العصر، / أو كان ذلك إلهامًا لا وحيًا بعد أن كان ذلك التخيير [٤٢٨ظ]
موافقًا لشريعة ذلك النبيّ.

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾﴾

﴿قَالَ﴾ أي: ذو القرنين لذلك النبيّ[١] أو لمَن عنده[٢] مِن خواصّه بعد ما تلقّى[٣] أمره تعالى مختارًا للشقّ الأخير: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ أي: نفسَه ولم يقبل دعوتي وأصرّ على ما كان عليه مِن الظلم العظيم الذي هو الشِّرك ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ بالقتل. وعن قتادةَ أنه كان يطبُخ مَن كفَر في القدور ومَن آمن أعطاه وكساه.[٤]

﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ في الآخرة ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ﴾ فيها ﴿عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي: منكرًا فظيعًا وهو عذاب النار. وفيه دلالة ظاهرة على أنّ الخطاب لم يكن بطريق الوحي إليه، وأنّ مقاولته كانت مع النبيّ أو مع مَن عنده مِن أهل مشورته.

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ بموجَب دعوتي ﴿وَعَمِلَ﴾ عملًا ﴿صَٰلِحًا﴾ حسبما يقتضيه الإيمان ﴿فَلَهُۥ﴾ في الدارين ﴿جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: فله المثوبة الحسنى أو الفِعلة الحسنى أو الجنّة جزاء، على أنّه مصدر مؤكِّد لمضمون الجملة قُدِّم على المبتدأ اعتناء به، أو منصوب بمضمَر، أي: نجزي بها جزاء، والجملةُ حاليّة أو معترِضة بين المبتدأ والخبر المتقدِّم عليه، أو حال،[٥] أي: مجزيًّا بها، أو تمييز. وقُرئ منصوبًا غيرَ منوّن[٦] على أنّه سقَط تنوينه لالتقاء الساكنين، ومرفوعًا منوّنًا[٧] على أنّه المبتدأ، و﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بدله، والخبرُ الجارّ والمجرور.

---

١ وفي هامش م: على تقدير شمول الخطاب بطريق الوحي إليه. «منه».

٢ وفي هامش م: أي: على التقديرين. «منه».

٣ وفي هامش م: مِن النبيّ أو منه تعالى بطريق الإلهام. «منه».

٤ بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٤٦. ولم أقف عليه في مظانّه.

٥ السياق: على أنّه مصدر... أو حال...

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك وابن أبي إسحاق. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٤.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش والضحّاك وابن أبي إسحاق. المغني في القراءات للنُّوْزاوازي، ص ١١٨١.

وقيل: خُيّر بين القتل والأسر، والجواب مِن باب الأسلوب الحكيم؛ لأنّ الظاهر التخيير بينهما وهم كفّار، فقال: أمّا الكافر فيُراعى في حقّه قوّة الإسلام وأمّا المؤمن فلا يُتعرَّض له إلّا بما يجب. ويجوز أن تكون ﴿إِمَّا﴾ و﴿إِمَّا﴾[1] للتوزيع دون التخيير، أي: ليكن شأنك معهم إمّا التعذيبَ وإمّا الإحسانَ، فالأوّل لمَن بقيَ على حاله والثاني لمَن تاب.

﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا﴾ أي: ممّا نأمر به ﴿يُسْرًا﴾ أي: سهلًا متيسِّرًا غيرَ شاقّ، وتقديره: ذا يُسر، أو أُطلِق عليه المصدر مبالغة، وقُرئ بضمّتين.[2]

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۝٨٩ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ۝٩٠﴾

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي: طريقًا راجعًا مِن مغرِب الشمس موصِلًا إلى مَشرِقها.

[٤٢٩و] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ / يعني الموضِع الذي تطلع عليه الشمس أوّلًا مِن معمورة الأرض. وقُرئ بفتح "اللام"[3] على تقدير مضاف، أي: مكان طلوع الشمس فإنّه مصدر. قيل: بلَغه في اثنتي عشرةَ سنةً. وقيل: في أقلَّ مِن ذلك بناء على ما ذُكر مِن أنه سُخِّر له السحاب وطُوي له الأسباب.[4]

﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ مِن اللباس والبناء. قيل: هم الزَّنْج. وعن كعب: أنّ أرضَهم لا تُمسك الأبنية وبها أسراب، فإذا طلعت الشمس دخلوا الأسراب أو البحر، فإذا ارتفع النهار خرجوا إلى معايشهم. وعن بعضهم: خرجتُ حتى جاوزت الصينَ فسألت عن هؤلاء فقالوا: بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة، فبلغتُهم فإذا أحدهم يفرُش أُذنه ويلبَس الأخرى ومعي صاحب يعرِف لسانهم، فقالوا له: جئتنا تنظر كيف تطلُع الشمس، قال: فبينما نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة الصلصلة

---

١ كلاهما في الكهف، ٨٦/١٨.

٢ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٥٤٦/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وعيسى وحُميد وابن مُحيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٤؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١١٨١.

٤ ما وقفت عليهما فيما بين يديّ مِن المظانّ.

فغُشيَ عليّ ثم أفقتُ وهم يمسحونني بالدُّهن، فلما طلعَت الشمس على الماء إذا هو فوق الماء كهيئة الزيت فأدخلونا سِرْبًا لهم، فلمّا ارتفع النهار خرجوا إلى البحر يصطادون السمك ويطرحونه في الشمس فينضَج لهم.[1]

وعن مجاهد: مَن لا يلبَس الثيابَ مِن السودان عند مطلِع الشمس أكثرُ مِن جميع أهل الأرض.[2]

﴿كَذَٰلِكَ ۖ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: أمر ذي القرنين كما وصفناه لك في رِفعة المحلّ وبَسطة المُلك، أو أمره فيهم كأمره في أهل المغرِب مِن التخيير والاختيار. ويجوز أن يكون صفةَ مصدر محذوف لـ﴿وَجَدَ﴾ أو ﴿نَجْعَل﴾[3] أو صفةَ ﴿قَوْمٍ﴾،[4] أي: على قوم مثل ذلك القَبيل الذي تغرُب عليهم الشمس في الكفر والحُكم، أو سترًا / مثلَ [٤٢٩ظ] ستركم مِن اللباس والأكنان والجبال وغير ذلك.

﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ﴾ مِن الأسباب والعَدد والعُدد ﴿خُبْرًا﴾ يعني أنّ ذلك مِن الكثرة بحيث لا يحيط به إلّا عِلمُ اللطيف الخبير، هذا على الوجه الأوّل. وأمّا على الوجوه الباقية فالمراد بـ﴿مَا لَدَيْهِ﴾ ما يتناول ما جرى عليه وما صدَر عنه وما لاقاه، فتأمّل.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾﴾

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي: طريقًا ثالثًا معترِضًا بين المشرِق والمغرِب آخذًا مِن الجنوب إلى الشمال.

---

١ هذه الأقوال الثلاثة بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٤٦.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٤٦.

٣ وفي هامش م: فيها نوع تكلُّف: أمّا في الوجه الأوّل فلأنّ الوجدان في المشبَّه متعلّق بالشمس وفي المشبَّه به بالقوم، وأمّا في الثاني فلأنّه ليس المشبَّه جَعْل حتّى يشبَّه به هذا الجَعْل. «منه».

٤ في الآية السابقة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ بين الجبلين اللذين سَدّ ما بينهما، وهو منقطَع أرض التُّرك ممّا يلي المشرِق، لا جبلا إرمينيّةَ وأذربيجان[١] كما تُوهِّم،[٢] وقُرئ بالضمّ.[٣] قيل: ما كان مِن خلق الله تعالى فهو مضموم وما كان مِن عمل الخَلْق فهو مفتوح.[٤] وانتصاب ﴿بَيْنَ﴾ على المفعوليّة؛ لأنّه مبلوغ، وهو مِن الظروف التي تستعمل أسماء أيضًا كما ارتفع في قوله تعالى: "لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنُكُمْ"[٥] [الأنعام، ٩٤/٦]، وانجرّ في قوله تعالى: ﴿فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف، ٧٨/١٨].

﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا﴾ أي: مِن ورائهما مجاوزًا عنهما ﴿قَوْمًا﴾ أي: أمّة مِن الناس ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ لغرابة لغتهم وقلّة فِطنتهم. وقُرئ مِن باب الإفعال،[٦] أي: لا يُفهمون السامعَ كلامَهم.

واختلفوا في أنّهم مِن أيّ الأقوام، فقال الضحّاك: هم جيل مِن التُّرك، وقال السُّدّي: التُّرك سريّة مِن يأجوجَ ومأجوجَ، خرجت فضرَب ذو القرنين السَّدّ فبقيت خارجةً فجميع التُّرك منهم، وعن قتادةَ: أنّهم اثنتان وعشرون قبيلةً سدّ ذو القرنين على إحدى وعشرين قبيلةً منهم وبقيت واحدة فسُمّوا التُّركَ لأنّهم تُركوا خارجين.[٧]

قال أهل التاريخ: أولاد نوح عليه السلام ثلاثة: سامٌ وحامٌ ويافثُ، فسامٌ أبو العرب والعجم والروم، وحامٌ أبو الحبشة والزَّنج والنُّوبة،[٨] ويافثُ أبو التُّرك

---

١ أَذْرَبيجان: هي اليوم واحدة مِن ستّ دول تركيّة مستقلّة في منطقة القوقاز في أوراسيا تقع في مفترق الطرق بين أوروبا الشرقيّة وآسيا الغربيّة، انظر لِما قيل فيها في المصادر: معجم البلدان للحموي، ١٢٨/١.

٢ في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٥٤/٢.

٣ قرأ بها نافع وابن عامر وحمزة والكسائي وشعبة وأبو جعفر ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٣١٥/٢.

٤ وفي هامش م: في الضمّ والفتح ما لا يخفى مِن النكتة. «منه». | والقول في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٧/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن يعمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٧٣.

٦ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣١٥/٢.

٧ الأقوال الثلاثة في معالم التنزيل للبغوي، ٢٠٢/٥.

٨ النُّوبة: بلاد واسعة عريضة في جنوبيّ مصر. انظر: معجم البلدان للحموي، ٣٠٩/٥.

والخَزَر[١] والصقالبة[٢] ويأجوجَ ومأجوجَ.[٣]

﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾

/ ﴿قَالُوا﴾ أي: بواسطة مترجمهم أو بالذات على أن يكون فهمُ ذي القرنين كلامَهم، وإفهامُ كلامِه إيّاهم مِن جملة ما آتاه الله تعالى مِن الأسباب. ﴿يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ قد ذكرنا أنّهما مِن أولاد يافث بن نوحٍ عليه السلام. وقيل: يأجوجُ مِن التُّرك ومأجوجُ مِن الجِيل.[٤] واختُلف في صفاتهم، فقيل: في غاية صِغر الجُثّة وقِصَر القامة لا يزيد قدُّهم على شبر واحد. وقيل: في نهاية عِظَم الجسم وطول القامة يبلغ قدُودهم نحوَ مائة وعشرين ذراعًا وفيهم مَن عَرضه كذلك. وقيل: لهم مخالبُ وأضراس كالسباع.[٥] وهما اسمان أعجميّان بدليل مَنْع الصرف، وقيل: عربيّان مِن "أجّ الظليم" إذا أسرَع.[٦] وأصلها "الهمزة"، كما قرأ عاصم، وقد قُرئ بغير همزة،[٧] ومَنْعُ صرفهما للتعريف والتأنيث. [٤٣٠و]

---

١ الخَزر: هم جيل خُزر العيون، ينسبون إلى خزر بن يافث بن نوح. انظر: معجم البلدان للحموي، ٣٦٧/٢.

٢ الصقالبة: مختلف فيهم، قيل: جيل حمر الألوان صُهب الشعور، وقيل: أجناس مختلفة مساكنهم بالحربي إلى شلو المغرب وبينهم حروب، ومنهم نصارى يعقوبيّة، ومنهم لا كتاب له ولا شريعة وهم جاهلون، وقيل: مِن أبناء يافث بن نوح عليه السلام. انظر: معجم البلدان للحموي، ٤١٦/٣.

٣ الكلام بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٢٠٢/٥؛ واللباب لابن عادل، ٥٦٤/١٢. | يأجوج ومأجوج: قيل: هما ابنا يافث بن نوح عليه السلام، وهما قبيلتان مِن خلق. قيل: أربع وعشرون أمّةً، وقيل: هم أمَم كثيرة لا يحصيهم إلّا الله، وهم قصار صلع، عراض الوجوه، يبلغ طول الواحد منهم نصف طول الرجل المربوع لهم مخاليب في مواضع الأظفار، ولهم أضراس وأنياب كالسباع، وقد بنى ذو القرنين سدًّا بينهم وبين الأمّة التي استجارت به منهم. انظر: معجم البلدان للحموي، ١٩٧/٢، ٣٥١-٣٦٩.

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٧/٢. | الجِيل: هم أهل جِيلان؛ وهي بلاد كثيرة مِن وراء بلاد طبرستان، وقد نُسب إليها ما لا يُحصى مِن أهل العلم في كلّ فنّ، وقيل: جيلان ابن يافث بن نوح عليه السلام. انظر: معجم البلدان للحموي، ٢٠٢/٢، ٤٢٠/٥.

٥ الأقوال الثلاثة في اللباب لابن عادل، ٥٦٤/١٢، وبعضها في معالم التنزيل للبغوي، ٢٠٢/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٤٧/٢.

٦ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٥٤/٢.

٧ قرأ بها العشرة إلّا عاصمًا. النشر لابن الجزري، ٣١٥/٢.

﴿مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: في أرضنا بالقتل والتخريب وإتلاف الزروع. قيل: كانوا يخرُجون أيّام الربيع فلا يتركون أخضرَ إلّا أكلوه ولا يابسًا إلّا احتملوه. وقيل: كانوا يأكلون الناسَ أيضًا.[١]

﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ أي: جُعْلًا مِن أموالنا. "الفاء" لتفريع العَرض على إفسادهم في الأرض. وقُرئ: "خَرَاجًا"[٢] وكلاهما واحد كـ"النَّول" و"النَّوال". وقيل: الخراجُ ما على الأرض والذِّمة والخَرْج المصدر.[٣] وقيل: الخَرْج ما كان على كلّ رأس والخراجُ ما كان على البلد. وقيل: الخَرْج ما تبرّعتَ به والخَراج ما لزِمك أداؤه.[٤] ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ وقُرئ بالضمّ.[٥]

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي﴾ بالإدغام، وقُرئ بالفكّ، أي: ما مكّنني ﴿فِيهِ رَبِّي﴾ وجعلني فيه مكينًا قادرًا مِن المُلك والمال وسائر الأسباب ﴿خَيْرٌ﴾ أي: ممّا تريدون أن تبذلوه إليّ مِن الخَرْج فلا حاجةَ بي إليه ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي: بفَعَلة / وصُنّاع يُحسنون البناء والعمل وبآلات لا بدّ منها في البناء، و"الفاء" لتفريع الأمر بالإعانة على خيريّة ما مكّنه الله تعالى فيه مِن مالهم أو على عدم قَبول خَرْجهم. [٤٣٠ظ]

﴿أَجْعَلْ﴾ جواب للأمر ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ﴾ تقديم إضافةِ الظرف إلى ضمير المخاطبين على إضافته إلى ضمير يأجوج ومأجوج، لإظهار كمال العناية بمصالحهم كما راعَوه في قولهم: بيننا وبينهم. ﴿رَدْمًا﴾ أي: حاجزًا حصينًا وبرزخًا متينًا، وهو أكبر مِن السدّ وأوثقُ، يقال: ثوب مُرَدّم، أي: فيه رِقاع فوق رِقاع، وهذا إسعاف بمرامهم فوق ما يرجونه.

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾

---

١ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٤٧.

٢ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٥.

٣ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٥٤.

٤ القولان في اللباب لابن عادل، ١٢/٥٦٤-٥٦٥.

٥ قرأ بها نافع وابن عامر وشعبة ويعقوب وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٥.

﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ جمع "زُبْرة" كـ"غُرَف" في "غُرفة" وهي القطعة الكبيرة، وهذا لا ينافي ردّ خراجهم لأنّ المأمور به الإيتاء بالثمن أو المناولة كما ينبئ عنه القراءة بوَصْل الهمزة، أي: جيئوني بزُبَر الحديد على حَذْف "الباء"، كما في "أمرتُك الخير"، ولأنّ إيتاء الآلة مِن قبيل الإعانة بالقوّة دون الخَراج على العمل، ولعلّ تخصيصَ الأمر بالإيتاء بها[1] دون سائر الآلات مِن الصخور والحطب ونحوهما لِما أنّ الحاجة إليها أمسُّ؛ إذ هي الرُّكن في السدّ ووجودها أعزّ.

قيل: حفَر للأساس حتّى بلغ الماء وجعل الأساسَ مِن الصخر والنحاس المذاب والبنيانَ مِن زُبر الحديد بينها الحطبُ والفحم، حتّى سدّ ما بين الجبلين إلى أعلاهما، وكان مائةَ فرسخ،[2] وذلك قوله عزّ قائلًا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ أي: آتوه إيّاها فأخذ يبني شيئًا فشيئًا،[3] حتّى إذا جعل ما بين ناحيتي الجبلين مِن البنيان مساويًا لهما في السَّمْك على النهج المحكيّ. قيل: كان ارتفاعه مائتي ذراع وعَرضه خمسين ذراعًا.[4] وقُرئ: "سَوَّى"[5] مِن التسوية و"سُوْوِيَ"[6] على البناء للمجهول.

﴿قَالَ﴾ للعَمَلة ﴿ٱنفُخُوا۟﴾ أي: بالكِيران في الحديد المبنيّ ففعلوا.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ﴾ أي: المنفوخ فيه ﴿نَارًا﴾ أي: كالنار في الحرارة والهيئة. / وإسناد الجعل المذكور إلى ذي القرنين مع أنّه فَعْل الفَعَلة للتنبيه على أنّه العُمدة [٤٣١و] في ذلك وهم بمنزلة آلاته. ﴿قَالَ﴾ للذين يتولَّوْن أمرَ النُّحاس مِن الإذابة ونحوِها: ﴿ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ أي: آتوني قِطرًا، أي: نُحاسًا مذابًا أفرِغْ عليه قِطرًا، فحُذف الأوّل لدلالة الثاني عليه. وقُرئ بالوصل،[7] أي: جيئوني كأنّه يستدعيهم للإعانة باليد عند الإفراغ. وإسنادُ الإفراغ إلى نفسه للسرّ الذي وقفت عليه آنفًا، وكذا الكلامُ في قوله تعالى: ﴿سَاوَىٰ﴾، وقولِه تعالى: ﴿أَجْعَلْ﴾.[8]

---

١ وفي هامش م: "الباء" متعلّقة بالتخصيص. «منه».
٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٤٨.
٣ وفي هامش م: فإنّ "حتّى" يستدعي التدريج. «منه».
٤ القول في اللباب لابن عادل، ١٢/٥٦٧.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٤.
٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي أميّة عن أبي بكر عن عاصم. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٨٤.
٧ قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٥.
٨ في الآية السابقة.

﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾

﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ﴾ بحذف تاء الافتعال تخفيفًا وحذرًا عن تلاقي المتقارِبَين، وقُرئ بالإدغام،[1] وفيه جمع بين الساكنين على غير حدّه، وقُرئ بقلب "السين" صادًا،[2] و"الفاء" فصيحة، أي: فعلوا ما أُمروا به مِن إيتاء القِطْر أو الإتيانِ،[3] فأفرغَه عليه فاختلط والتصق بعضه ببعض فصار جبلًا صَلْدًا، فجاء يأجوجُ ومأجوجُ، فقصدوا أن يعلُوه وينقُبوه فما استطاعوا ﴿أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أي: يعلوه ويرقَوا فيه لارتفاعه وملاسته ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ لصلابته وثخانته.

وهذه معجزة عظيمة؛[4] لأنّ تلك الزُبَر الكثيرة إذا أثّرت فيها حرارة النار لا يقدِر الحيوان على أن يحُوم حولها فضلًا عن النفخ فيها إلى أن تكون كالنار، أو عن إفراغ القِطْر عليها فكأنّه سبحانه وتعالى صرف تأثير تلك الحرارة العظيمة عن أبدان أولئك المباشرين للأعمال، فكان ما كان، والله على كلّ شيء قدير.

«وقيل: بناه مِن الصخور مرتبطًا بعضها ببعض بكلاليب مِن حديد ونُحاس مُذاب في تجاويفها»،[5] بحيث لم يبقَ هناك فُرجة أصلًا.

﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾

[٤٣١ظ] ﴿قَالَ﴾ أي: ذو القرنين لمَن عنده مِن أهل تلك الديارِ وغيرهم / ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى السدّ. وقيل: إلى تمكينه مِن بنائه،[6] والفضل للمتقدّم، أي: هذا الذي ظهر على يديّ وحصَل بمباشرتي مِن السدّ الذي شأنه ما ذُكر مِن المتانة وصعوبةِ المنال ﴿رَحْمَةٌ﴾ أي: أثرُ رحمة عظيمة عُبِّر عنه بها مبالغة ﴿مِّن رَّبِّى﴾ على كافّة العباد لاسيّما على مجاوريه، وفيه إيذان بأنّه ليس مِن قبيل الآثار الحاصلة بمباشرة الخلق عادة؛ بل هو إحسان إلهي مَحض وإن ظهر بمباشرتي. والتعرُّض لوَصْف الربوبيّة لتربية معنى الرحمة.

---

١ قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٦.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الشَّمُّوني. المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١١٨٤.

٣ وفي هامش م: للإعانة على قراءة الوصل. «منه».

٤ وفي هامش م: ومَن لا يقول بنبوّته يجعل ذلك معجزةً لنبيّ ذلك العصر. «منه».

٥ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٥٦.

٦ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٥٦.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى﴾ مصدر بمعنى المفعول وهو يوم القيامة، لا خروج يأجوجَ ومأجوجَ كما قيل،[١] إذ لا يساعده النظم الكريم. والمراد بمجيئه ما ينتظم مجيئَه ومجيءَ مباديه مِن خروجهم وخروج الدجّال ونزولِ عيسى عليه السلام ونحو ذلك، لا دنوُّ وقوعه فقط كما قيل،[٢] فإنّ بعضَ الأمور[٣] التي ستُحكى يقع بعد مجيئه حتمًا.

﴿جَعَلَهُۥ﴾ أي: السدَّ المشار إليه مع متانته ورصانته، وفيه مِن الجزالة ما ليس في توجيه الإشارة السابقة إلى التمكين المذكور. ﴿دَكَّآءَ﴾ أي: أرضًا مستوية، وقُرئ: "دَكًّا"،[٤] أي: مدكوكًا مُسوًّى بالأرض، وكلُّ ما انبسط بعد ارتفاع فقد اندكّ ومنه "الجَمَل الأدَكّ"، أي: المنبسِط السنامِ، وهذا الجَعْل وقت مجيء الوعد بمجيء بعض مباديه، وفيه بيان لعِظَم قدرته عزّ وجلّ بعد بيان سَعة رحمته.

﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى﴾ أي: وعده المعهود، أو كلُّ ما وعَد به، فيدخُل فيه ذلك دخولًا أوّليًا. ﴿حَقًّا﴾ ثابتًا لا محالةَ واقعًا البتّةَ. وهذه الجملة تذييل مِن ذي القرنين لِما ذكَره مِن الجملة الشرطيّة ومقرِّر[٥] لمضمونها وهو آخرُ ما حُكي مِن قصّته.

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ﴾ كلام مَسوق مِن جنابه تعالى معطوف على قوله تعالى: ﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾[٦] ومحقِّق لمضمونه، أي: جعلنا بعض الخلائق ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم إذ جاء الوعد بمجيء بعض مباديه ﴿يَمُوجُ فِى بَعْضٍ﴾ آخرَ منهم يضطربون اضطراب أمواج البحر ويختلِط إنسهم وجنّهم حَيارى مِن شدّة الهول، ولعلّ ذلك قبل النفخة الأولى، أو تركنا بعض يأجوجَ ومأجوجَ يموج في بعض آخرَ منهم حين يخرُجون مِن السدّ مزدحِمين في البلاد.

---

١ في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٥٦.
٢ في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٤٨.
٣ وفي هامش م: كالنفخ في الصور والجمع وعرض جهنّم ونحو ذلك. «منه».
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٥.
٥ م: مؤكِّد ["صح" في الهامش].
٦ في الآية السابقة.

رُوي أنّهم يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابّه ثمّ يأكلون الشجر ومَن ظفِروا به ممّن لم يتحصّن منهم مِن الناس، ولا يقدِرون أن يأتوا مكّة والمدينة وبيت المقدس، ثمّ يبعث الله عزّ وجلّ نَغَفًا[1] في أقفائهم فيدخُل آذانَهم فيموتون موتَ نفس واحدة، / فيرسل الله تعالى عليهم طيرًا فتُلقيهم في البحر، ثمّ يرسِل [٤٣٢و] مطرًا يغسل الأرض ويطهِّرها مِن نَتْنهم حتّى يترُكها كالزَّلَفة،[2] ثمّ يوضع فيها البركة، وذلك بعد نزولِ المسيح عليه الصلاة والسلام وقَتْل الدجّال.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ هي النفخة الثانية بقضيّة "الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَجَمَعْنَٰهُمْ﴾. ولعلّ عدمَ التعرّض لذِكر النفخة الأولى لأنّها داهية عامّة ليس فيها حالة مختصّة[3] بالكفّار، ولئلّا يقع الفَصْل بين ما يقع في النشأة الأولى مِن الأحوال والأهوال، وبين ما يقع منها في النشأة الآخرة، أي: جمعنا الخلائق بعدما تفرّقت أوصالهم وتمزّقت أجسادهم في صعيد واحد للحساب والجزاء. ﴿جَمْعًا﴾ أي: جمعًا عجيبًا لا يُكتَنه كُنهه.

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ﴾ أظهرناها وأبرزناها ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ إذ جمعنا الخلائق كافّة. ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ منهم حيث جعلناها بحيث يرَونها ويسمعون لها[4] تغيّظًا وزفيرًا. ﴿عَرْضًا﴾ أي: عرضًا فظيعًا هائلًا لا يُقادَر قَدْره. وتخصيص[5] العَرض بهم مع أنّها بمرأى مِن أهل الجمع قاطبةً؛ لأنّ[6] ذلك لأجلهم خاصّة.

﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ﴾ وهم في الدنيا ﴿فِي غِطَآءٍ﴾ كثيف وغِشاوة غليظة مُحاطة بذلك مِن جميع الجوانب. ﴿عَن ذِكْرِى﴾ عن الآيات المؤدّيةِ لأولي الأبصار

---

١ وفي هامش م: وهو دُود يكون في أنوف الغنَم. «منه». | انظر: لسان العرب لابن منظور، «نغف».

٢ الزَّلَفة: البركة والروضة والمرآة. لسان العرب لابن منظور، «زلف».

٣ س: فخصّة.

٤ س - لها.

٥ وفي هامش م: مبتدأ.

٦ وفي هامش م: خبر.

المتدبّرين فيها إلى ذِكري بالتوحيد والتمجيد، أو كانت أعين بصائرهم في غطاء عن ذكري على وجه يليق بشأني أو عن القرآن الكريم.

﴿وَكَانُوا﴾ مع ذلك ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لفَرْط تصامّهم عن الحقّ وكمال عداوتهم للرسول صلّى الله عليه وسلّم ﴿سَمْعًا﴾ استماعًا لذِكري وكلامي الحقّ الذي لا يأتيه الباطل مِن بين يديه ولا مِن خلفه، وهذا تمثيل لإعراضهم عن الأدلّة السمعيّة، كما أنّ الأوّل تصوير لتعاميهم عن الآيات المشاهَدة بالأبصار. والموصول نعت للكافرين أو بدل منه أو بيان جيء به لذمّهم بما في حيز الصلة وللإشعار بعلّيّته لإصابة ما أصابهم مِن عرَض جهنّمَ لهم، فإنّ ذلك إنّما هو لعدم استعمال مشاعرهم فيما عُرض لهم في الدنيا مِن الآيات وإعراضهم عنها مع كونها أسبابًا منجّية عمّا ابتُلوا به في الآخرة.

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ / أي: كفروا بي، كما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿عِبَادِى﴾، والحُسبان بمعنى الظنّ، وقد قُرئ: "أَفَظَنَّ".[1] والهمزة للإنكار والتوبيخ على معنى إنكار الواقع واستقباحِه، كما في قولك: أضربتَ أباك؟ لا إنكارِ الوقوع،[2] كما في قوله: أأضرِب أبي؟ و"الفاء" للعطف على مقدَّر يُفصِح عنه الصلة على توجيه الإنكار والتوبيخ إلى المعطوفَين جميعًا، كما إذا قُدِّر المعطوف عليه في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة، ٢/٤٤] منفيًّا، أي: ألا تسمعون فلا تعقلون، لا إلى المعطوف فقط كما إذا قُدِّر مُثْبتًا، أي: أتسمعون فلا تعقلون. [٤٣٢ظ]

والمعنى أكفَروا بي مع جلالة شأني فحسِبوا ﴿أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ﴾ مِن الملائكة وعيسى وعُزيرٍ عليهم السلام وهم تحت سلطاني وملكوتي ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ معبودين ينصُرونهم مِن بأسي. وما قيل: إنّها للعطف على ما قبلها

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٤٩.

٢ وفي هامش م: كما قيل في قوله عزّ وجلّ: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾... إلخ [النحل، ١٦/٤٥]، مِن أنّ "الفاء" للعطف على مقدّر تنبئ عنه الصلة، أي: أمَكَر فأمِن الذين... إلخ.

مِن قوله تعالى: ﴿كَانَتْ﴾... إلخ، ﴿وَكَانُواْ﴾... إلخ،[١] دلالة على أنّ الحُسبان ناشئ مِن التعامي والتصامّ وأُدخِل عليها همزة الإنكار ذمًّا على ذمّ وقطعًا له عن المعطوف عليهما لفظًا لا معنى للإيذان بالاستقلال المؤكِّد للذمّ، يأباه[٢] تَرْك الإضمار والتعرّضُ لوَصْف آخرَ غير التعامي والتصامّ على أنّهما أُخرجا مُخرَج الأحوال الجِبلّيّة لهم، ولم يُذكرا بعنوان[٣] أنّهما مِن أفعالهم الاختياريّة الحادثة كحُسبانهم ليحسُن تفريعه عليهما، وأيضًا فإنّه دِين قديم لهم لا يمكن جعلُه ناشئًا عن تصامّهم عن كلام الله عزّ وجلّ.

وتخصيص الإنكار بحُسبانهم المتأخّر عن ذلك تعسُّف لا يخفى، وما في حيّز صلةِ ﴿أَن﴾ سادٌّ مسدّ مفعولَي ﴿حَسِبَ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [المائدة، ٧١/٥]، أي: أفحسبوا أنّهم يتّخذونهم أولياءَ على معنى أنّ ذلك ليس مِن الاتّخاذ في شيء لِما أنّه إنّما يكون مِن الجانبين، وهم عليهم السلام منزَّهون عن وَلايتهم بالمرّة لقولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ [سبأ، ٤١/٣٤].

وقيل: مفعوله الثاني محذوف، أي: أفحسِبوا اتّخاذهم نافعًا لهم.[٤] والوجهُ هو الأوّل لأنّ في هذا تسليمًا لنفس الاتّخاذ واعتدادًا به في الجملة، وقُرئ: "أفحَسْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا"،[٥] أي: أفمُحسِبهم وكافيهم أن يتّخذوهم أولياء على الابتداء والخبر، أو الفعل والفاعل،[٦] فإنّ النعت إذا اعتمد الهمزة ساوى الفعل في العمل، فالهمزة حينئذ بمعنى إنكار الوقوع.

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ﴾ أي: هيأناها ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ المعهودين، عُدل عن الإضمار ذمًّا لهم وإشعارًا بأنّ ذلك الإعتاد بسبب كفرهم المتضمِّن لحسبانهم الباطل. ﴿نُزُلًا﴾ أي: شيئًا يتمتّعون به عند ورودهم، وهو ما يقام للنزيل، أي: الضيف ممّا حضَر مِن الطعام، وفيه تخطئة لهم في حسبانهم / وتهكُّم بهم حيث كان [٤٣٣و]

---

١ في الآية السابقة.
٢ السياق: وما قيل... يأباه...
٣ م ط س: مِن حيث [صُحِّح في هامش م].
٤ في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٥٦/٢.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ والحسن ومجاهد وعاصم ويعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٤.
٦ وفي هامش م: وفيه ما فيه مِن نوع تسليم لنفس الاتّخاذ. «منه».

اتّخاذهم إيّاهم أولياءَ مِن قبيل إعتاد العتاد وإعداد الزاد ليوم المعاد، فكأنّه قيل: إنّا أعتدنا لهم مكان ما أعدّوا لأنفسهم مِن العُدة والذُّخر جهنمَ عُدّة.

وفي إيراد النُّزُل إيماء إلى أنّ لهم وراءَ جهنّمَ مِن العذاب ما هي أنموذج له. وقيل: النُّزل موضع النزول.[1] ولذلك فسّره ابن عبّاس رضي الله عنهما بالمثوى.[2]

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾﴾

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم﴾ الخطاب الثاني للكفرة على وجه التوبيخ، والجَمْع في صيغة المتكلِّم لتعيينه مِن أوّل الأمر، وللإيذان بمعلوميّة النبأ للمؤمنين أيضًا. ﴿بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ نصب على التمييز، والجمع للإيذان بتنوّعها، وهذا بيان لحال الكفرة باعتبار ما صدَر عنهم مِن الأعمال الحسَنة في أنفسها، وفي حُسبانهم أيضًا حيث كانوا معجَبين بها واثقين بنيل ثوابها ومشاهدة آثارها غِبَّ بيان حالهم باعتبار أعمالهم السيّئة في أنفسها مع كونها حسنةً في حسبانهم.

﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ﴾ في إقامة تلك الأعمال، أي: ضاع وبطَل بالكلّيّة ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلّق بالسعي لا بالضلال لأنّ بُطلان سعيهم غير مختصّ بالدنيا. قيل: المراد بهم أهل الكتابين، قاله ابن عبّاس وسعد بن أبي وقّاص ومجاهد،[3] ويدخُل في الأعمال حينئذ ما عمِلوه مِن الأحكام المنسوخة المتعلّقة بالعبادات. وقيل: الرُّهابِنة الذين يحبِسون أنفسَهم في الصوامع ويحمِلونها على الرياضات الشاقّة.[4] ولعلّه ما يعمّهم وغيرَهم مِن الكفرة. ومحلُّ الموصول الرفع على أنّه خبرُ مبتدأ محذوف لأنّه جواب للسؤال، كأنّه قيل: مَن هم؟ فقيل: الذين... إلخ.

---

١ القول في اللباب لابن عادل، ١٢/٥٧١.

٢ في معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢١٠.

٣ في جامع البيان للطبري، ١٥/٤٢٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/٢١٠؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٥٤٩.

٤ مَرويٌّ عن عليّ بن أبي طالب والضحّاك وغيرهما في جامع البيان للطبري، ١٥/٤٢٣؛ وهو بلا عزو في معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢١٠؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٥٤٩.

وجعلُه مجرورًا على أنّه نعت للأخسرين أو بدل منه أو منصوبًا على الذمّ على أنّ الجواب ما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾[1] الآية،[2] يأباه أنّ صدره ليس مُنبئًا عن خُسران الأعمال وضلال السعي كما يستدعيه مقام الجواب. والتفريع الأوّل وإن دلّ على حبوطها لكنّه ساكتٌ عن إنباء ما هو العُمدة في تحقيق معنى الخسران مِن الوثوق بترتّب الربح واعتقاد النفع فيما صنعوا، على أنّ التفريع الثانيَ ممّا يقطع ذلك الاحتمال رأسًا، إذ لا مجالَ لإدراجه تحت الأمر بقضيّة نون العظمة.

﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ الإحسان الإتيان بالأعمال على الوجه اللائق، وهو حسنُها الوصفيُّ المستلزِمُ لحُسنها الذاتي، أي: يحسَبون أنّهم يعملون ذلك على الوجه اللائق وذلك لإعجابهم بأعمالهم التي سعَوا في إقامتها وكابدوا في تحصيلها.

[٤٣٣ظ] والجملة حال مِن فاعل ﴿ضَلَّ﴾، / أي: بطَل سعيُهم المذكور، والحال أنّهم يحسَبون أنّهم يُحسنون في ذلك وينتفعون بآثاره، أو مِن المضاف إليه لكونه في محلّ الرفع،[3] نحو قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس، ١٠/٤]، أي: بطل سعيُهم والحال أنّهم... إلخ. والفرق بينهما أنّ المقارِن لحال حُسبانهم المذكور في الأوّل ضلالُ سعيهم، وفي الثاني نفسُ سعيهم، والأوّل أدخَل في بيان خطئهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ كلام مستأنَف مِن جنابه تعالى مَسوق لتكميل تعريف الأخسرين وتبيين سبب خسرانهم وضلال سعيهم وتعيينهم، بحيث ينطبق[4] على المخاطَبين غيرَ داخل تحت الأمر، أي: أولئك المنعوتون بما ذُكر[5] مِن ضلال السعي مع الحسبان المزبور. ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ بدلائله الداعية إلى التوحيد عقلًا ونقلًا، والتعرّض لعنوان الربوبيّة لزيادة تقبيح حالِهم في الكفر المذكور.

---

١ في الآية التالية.

٢ في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٥٧.

٣ وفي هامش م: ولاتّحاد العامل في الحال وصاحبها. «منه».

٤ وفي هامش م: التعريف؛ س + التعريف.

٥ وفي هامش م: بقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾... إلخ. «منه».

﴿وَلِقَآئِهِۦ﴾ بالبعث وما يتبعه مِن أمور الآخرة على ما هي عليه، ﴿فَحَبِطَتْ﴾ لذلك ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾ المعهودة حُبوطًا كلّيًا ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ﴾ أي: لأولئك الموصوفين بما مرّ مِن حُبوط الأعمال، وقُرئ بالياء.[1] ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ أي: فنزدريهم ولا نجعل لهم مقدارًا واعتبارًا؛ لأنّ مداره الأعمال الصالحة وقد حبِطت بالمرّة، وحيث كان هذا الازدراء مِن عواقب حبوط الأعمال عُطف عليه بطريق التفريع.

وأمّا ما هو مِن أجزية الكفر فسيجيء بعد ذلك، أو لا نضع لأجل وزن أعمالهم ميزانًا؛ لأنّه إنّما يُوضَع لأهل الحسنات والسيّئات مِن الموحِّدين ليتميَّز به مقاديرُ الطاعات والمعاصي ليترتَّب عليه التكفير أو عدمه، لأنّ ذلك[2] في الموحِّدين بطريق الكمّيّة، وأمّا الكفر فإحباطه للحسنات بحسب الكيفيّة دون الكمّيّة فلا يُوضَع لهم الميزان قطعًا.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ بيان لمآل كفرهم وسائر معاصيهم إثرَ بيان مآل أعمالهم المحبَطة بذلك،[3] أي: الأمر ذلك، وقوله عزّ وجلّ: ﴿جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ جملة مبيّنة له، أو ذلك مبتدأ والجملةُ خبره والعائد محذوف، أي: جزاؤهم به، أو ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ بدلُه و﴿جَهَنَّمُ﴾ خبره، أو ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ خبره و﴿جَهَنَّمُ﴾ عطف بيان للخبر. ﴿بِمَا كَفَرُوا۟﴾ تصريح بأنّ ما ذُكر جزاء لكفرهم المتضمِّن لسائر القبائح التي أنبأ عنها قوله تعالى: / ﴿وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾ أي: مهزوًّا بهما، فإنّهم لم يقتنعوا بمجرَّد [٤٣٤و] الكفر بالآيات والرسل؛ بل ارتكبوا مثلَ تلك العظيمة أيضًا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بيان بطريق الوعد لمآل الذين اتّصفوا بأضداد ما اتّصفت به الكفرة إثرَ بيان ما لهم بطريق الوعيد، أي: آمنوا بآيات ربّهم ولقائه ﴿وَعَمِلُوا۟

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن عُبيد بن عُمير ومجاهد وابن عمر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٥؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٤.

[2] وفي هامش م: أي: تكفير الطاعات للمعاصي وإحباط المعاصي للطاعات. «منه».

[3] وفي هامش م: أي: بكفرهم.

﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مِن الأعمال ﴿كَانَتْ لَهُمْ﴾ فيما سبق مِن حُكم الله تعالى ووعده. وفيه إيماءٌ إلى أنّ أثر الرحمة يصل إليهم بمقتضى الرأفة الأزليّة، بخلاف ما مرّ مِن جَعْل جهنّم للكافرين نُزُلًا، فإنّه بموجَب ما حدَث مِن سوء اختيارِهم.

﴿جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ﴾ عن مجاهد: أنّ الفردوس هو البستان بالروميّة.[1] وقال عكرمةُ: هو الجنّة بالحبشيّة. وقال الضحّاك: هي الجنّة الملتفّة الأشجار. وقيل: هي الجنّة التي تُنبت ضروبًا مِن النبات. وقيل: هي الجنّة مِن الكَرْم خاصّة. وقيل: ما كان غالبه كَرْمًا. وقال المبرّد: هو فيما سمعتُ مِن العرب الشجر الملتفُّ، والأغلب عليه أن يكون مِن العِنَب.[2] وعن كعب: أنّه ليس في الجِنان أعلى مِن جنّة الفردوس، وفيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المُنكَر.[3] وعن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «في الجنّة مائة درجة ما بين كلّ درجة مسيرةُ مائة عامٍ، والفردوسُ أعلاها وفيها الأنهار الأربعة، فإذا سألتُم الله تعالى فاسألوه الفِردوسَ فإنّ فوقه عرش الرحمن ومنه تفجّر أنهار الجنّة».[4]

﴿نُزُلًا﴾ خبرُ ﴿كَانَتْ﴾ والجارّ والمجرور متعلّق بمحذوف على أنّه حال مِن ﴿نُزُلًا﴾، أو على أنّه بيان أو حال مِن ﴿جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ﴾، والخبرُ هو الجارّ والمجرور، فإن جُعل النزول بمعنى ما يُهيَّأ للنازل فالمعنى كانت لهم ثمار جنّات الفردوس نُزُلًا، أو جُعلت نفس الجنّات نُزُلًا مبالغةً في الإكرام، وفيه إيذان بأنّها عند ما أعدّ الله لهم على ما جرى على لسان النبوّة مِن قوله: «أعددْتُ لعبادِيَ الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمِعتْ ولا خطرَ على قلب بشر»،[5] بمنزلة النُّزل بالنسبة إلى الضيافة، وإن جُعل بمعنى المُنزل، فالمعنى ظاهر.

---

١ جامع البيان للطبري، ١٥/٤٣٢؛ معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢١٠؛ اللباب لابن عادل، ١٢/٥٧٥.

٢ هذه الأقوال الستّة في اللباب لابن عادل، ١٢/٥٧٥-٥٧٦؛ وأكثرها في معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢١١-٢١٢.

٣ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٥/٤٣١؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/٢١٠.

٤ بلفظ قريب في صحيح البخاري؛ وجامع البيان للطبري، ١٥/٤٣٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/٢١١.

٥ مضى بتخريجه في هامش للمُصنِّف عند الكلام على الآية الثامنة بعد المائة مِن سورة هود.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ نصب على الحالية ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ مصدر كـ"العِود" و"الصِّغَر"، أي: لا يطلبون تحوّلًا عنها، إذ لا يُتصوَّر أن يكون شيء أعزَّ عندهم وأرفعَ منها حتّى تُنازِعهم إليه أنفسهم وتطمَح نحوه أبصارهم. ويجوز أن يراد نفيُ التحوّل وتأكيدُ الخلود، والجملة حال مِن صاحب ﴿خَٰلِدِينَ﴾ أو مِن ضميره فيه، فيكون حالًا متداخِلة.

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ﴾ أي: جنس البحر ﴿مِدَادًا﴾ وهو ما تُمِدّ به الدواة مِن الحِبر ﴿لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ لتحرير كلماتِ عِلمه وحكمته التي مِن جملتها ما ذُكِر مِن الآيات الداعية إلى التوحيد المحذِّرة مِن الإشراك ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ﴾ مع كثرته، ولم يبقَ منه شيء / لتناهيه ﴿قَبْلَ أَن تَنفَدَ﴾ وقُرئ بالياء،[1] والمعنى مِن غير أن تنفَد ﴿كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ لعدم تناهيها، فلا دلالةَ للكلام على نَفادها بعد نَفاد البحر. [٤٣٤ظ]

وفي إضافة الكلمات إلى اسم الربّ المضاف إلى ضميره صلّى الله عليه وسلّم في الموضعين مِن تفخيم المضاف وتشريف المضاف إليه ما لا يخفى. وإظهار ﴿ٱلْبَحْرُ﴾ و"الكلماتِ" في موضع الإضمار لزيادة التقرير.

﴿وَلَوْ جِئْنَا﴾ كلام مِن جهته تعالى غيرُ داخل في الكلام الملقَّن، جيء به لتحقيق مضمونه وتصديق مدلوله مع زيادة مبالغة وتأكيد، و"الواو" لعطف الجملة على نظيرتها المستأنَفة المقابلة لها المحذوفة لدلالة المذكورة عليها دلالة واضحة، أي: لنفِد البحر مِن غير نَفاد كلماته تعالى لو لم نجئ بمثله مَدَدًا، ولو جئنا بقدرتنا الباهرة ﴿بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ عونًا وزيادة؛ لأنّ مجموع المتناهيَين مُتناهٍ، بل مجموع ما يدخل تحت الوجود مِن الأجسام لا يكون إلّا متناهيًا لقيام الأدلّة القاطعة على تناهي الأبعاد.

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٦.

وقُرئ: "مِدَدًا"[1] جمع "مِدّة": وهي ما يستمدّه الكاتب، وقُرئ: "مِدَادًا".[2]

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾

﴿قُلْ﴾ لهم بعد ما بيّنتَ لهم شأن كلماته تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ لا أدّعي الإحاطة بكلماته التامّة ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ مِن تلك الكلماتِ ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لا شريكَ له في الخَلْق ولا في سائر أحكام الألوهيّة، وإنّما تميَّزتُ عنكم بذلك.

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ الرجاء: توقُّع وصول الخير في المستقبل. والمراد بلقائه تعالى كرامتُه. وإدخالُ الماضي على المستقبل للدلالة على أنّ اللائق بحال المؤمن الاستمرار والاستدامة على رجاء اللقاء، أي: فمَن استمرّ على رجاء كرامته تعالى، ﴿فَلْيَعْمَلْ﴾ لتحصيل تلك الطِّلبة العزيزة ﴿عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ في نفسه لائقًا بذلك المرجوّ كما فعله الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ إشراكًا جليًّا كما فعله الذين كفروا بآيات ربّهم ولقائه، ولا إشراكًا خفيًّا كما يفعله أهل الرياء ومَن يطلب به أجرًا. وإيثار وضعِ المُظهَر موضعَ المُضمر في الموضعين[3] مع التعرّض لعنوان الربوبيّة لزيادة التقرير، وللإشعار بعلّيّة العنوان / للأمر والنهي ووجوب الامتثال فعلًا وتَركًا. [٤٣٥و]

رُوي أنّ جُندُب بن زهير[4] رضي الله عنه قال لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّي لأعمل العمل لله تعالى فإذا اطُّلع عليه سرّني»، فقال عليه السلام:

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج والنقّاش عن مجاهد. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٨٥؛ **المغني في القراءات** للنُّوزاوازي، ص ١١٨٨.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وابن عبّاس والأعمش ومجاهد وحُميد والأعرج وابن مِقسَم وابن مُحيصن وسليمان التَّيمي. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٨٥؛ **المغني في القراءات** للنُّوزاوازي، ص ١١٨٨.

٣ وفي هامش م: في قوله تعالى: ﴿لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ وقوله تعالى: ﴿بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ﴾. «منه».

٤ هو جندب بن زهير بن الحارث بن كثير بن سبع بن مالك الأزدي الغامدي، مختلف في صحبته للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم، قيل: كان مع عليّ في صفّين، وهو عند أكثرهم قاتل الساحر بين يدي الوليد بن عقبة. انظر: **الاستيعاب** لابن عبد البرّ، ٢٥٨/١؛ **والإصابة** لابن حجر، ٥٠٧/١.

«إن الله لا يقبل ما شُورك فيه»،[١] فنزلت تصديقًا له. ورُوي أنّه عليه السلام قال له: «لك أجران أجْر السرّ وأجْر العلانية»،[٢] وذلك إذا قصد أن يُقتدى به. وعنه عليه السلام: «اتّقوا الشِّرك الأصغر»، قيل: «وما الشِّركُ الأصغرُ؟» قال: «الرِّياء».[٣]

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الكهف مِن آخرها كانت له نورًا مِن قَرْنه[٤] إلى قدَمه، ومَن قرأها كلَّها كانت له نورًا مِن الأرض إلى السماء».[٥]

وعنه عليه السلام: «مَن قرأ عند مضجعه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾... إلخ [الكهف، ١١٠/١٨]، كان له مِن مضجعه نورًا يتلألأ إلى مكّةَ، حَشْوُ ذلك النورِ ملائكة يصلّون عليه حتّى يقوم، وإن كان مضجعه بمكّةَ كان له نورًا يتلألأ مِن مضجعه إلى البيت المعمور، حَشْوُ ذلك النور ملائكة يصلّون عليه حتّى يستيقظ».[٦]

الحمد لله سبحانه على نعمه العِظام، وحسبنا الله تعالى ونعم الوكيل.[٧]

---

١ **أسباب النزول** للواحدي، ص ٣٠٧؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٥٥٠/٢.

٢ **سنن ابن ماجه**، ٣٠٥/٥ (٤٢٢٦)؛ **سنن الترمذي**، ٣٩٦/٤ (٢٣٨٤)؛ **شعب الإيمان** للبيهقي، ٢٤١/٩ (٦٦١٠)؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٥٥٠/٢.

٣ **معالم التنزيل** للبغوي، ٢١٣/٥؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٥٥١/٢. وانظر لتفصيل تخريجه: **تخريج أحاديث الكشّاف** للزيلعي، ٣١٥/٢-٣١٦.

٤ وفي هامش م: والقَرْن: جانب الرأس.

٥ الحديث بمعناه في **سنن الدارمي**، ٢١٤٣/٤ (٣٤٥٠)؛ **وشعب الإيمان** للبيهقي، ٨٦/٤ (٢٢٢٠)؛ **ومعالم التنزيل** للبغوي، ٢١٤/٥؛ **والكشّاف** للزمخشري، ٥٥١/٢.

٦ بلفظ قريب في **الكشف والبيان** للثعلبي، ٣١٤/١٧؛ **والكشّاف** للزمخشري، ٥٥١/٢. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١. وانظر لتفصيل تخريجه: **تخريج أحاديث الكشّاف** للزيلعي، ٣١٧/٢.

٧ ط س - وحسبنا الله ونعم الوكيل. | وفي هامش م: إلى هنا انتهى التسويد بفضل الله سبحانه، غُرّةَ ذي القعدة الحَرام، لسنة سبع وخمسين وتسعمائة، وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله وصحبه أجمعين. والله عزّ سلطانه أسأل متضرّعًا أن ييسّر لي إعادةَ النظر إليه بلطفه وفضله وإتمامه بمنّه وكرمه، إنّه هو البرّ الكريم، وصلّى الله على جميع الأنبياء والملائكة أجمعين.